محمد على باشا

عادل أبو المعاطى

مؤسسة دار الفرسان

للنشر والتوزيع

51ش ابراهيم خليل المطرية

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا)

صدق الله العظيم

طه 114



محمد على باشا

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد على باشا -محمد على ابراهيم أغا – لقب بـ (عزيز مصر) ولد 4مارس- 1769 القاهره، 2 اغسطس1849 والى مصر

ومؤسس الاسرة العلويه التى حكمت مصر و السودان حوالى 150 سنة من 1805 إلى سنة 1953. محمد على باشا حكم من 17 مايو 1805 إلى 1 سبتمبر 1848 و يعتبر مؤسس مصر الحديثه وكان سبب نهضتها و دخولها العصر الحديث. قال عنه المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى ": فلو وفقه الله لشىء من العدالة على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان اعجوبة زمانه وفريد اوانه."

وبغض النظر عن اصله الذى فى الأغلب كان البانى يعتبر نفسه عثمانى. بعد فشل مشاريعه العسكريه و عزله توفى فى الاسكندريه فى 2 اغسطس 1849 ، ودفن فى الجامع المعروف بإسمه فوق جبل المقطم فى قلعة القاهره.

يعد محمد علي باشا مؤسس الدولة المصرية الحديثة، وذلك بسبب إصلاحاته التي قام بها في أرجاء الدولة المصرية بعد استطاعته السيطرة عليها، وكان قد عين من قبل السلطان العثماني واليا على مصر في أعقاب خروج الحملة الفرنسية في عام 1801م، واستطاع من خلال حنكته ومهارته السياسية التحكم في مفاصل الدولة الهشة في ذلك الوقت واستصدار فرمان بتعيينه خديوي على البلاد، وشملت اصلاحاته مختلف أركان الدولة، حيث قام بتحديث الجيش المصري في فترة قصيرة بالاستعانة بالخبرات الأكاديمية الأوروبية وإرسال الكوادر المصرية في بعثات للتعلم في تلك الدول، إلى جانب تأسيس نظام تعليمي جديد على الطرز الأوروبية وإرسال الطلاب من مختلف التخصصات للدراسة في الجامعات الفرنسية، الأمر الذي أثر في إعادة توجيه الثقافة المصرية بعيداً عن السيطرة العثمانية، وشملت إصلاحاته كذلك الزراعة التي قللت من تبعية مصر الاقتصادية للدولة العثمانية، إلى جانب تأسيس جهاز الدولة المصري الحديث، الذي كان من ضمن مهامه التعداد السكاني، وفرض نظام ضريبي مختلف، والتجنيد الإجباري، وتطعيم الأطفال، وغيرها من الأنشطة المركزية للدولة التي لا يزال الكثير منها باقٍ إلى اليوم في مصر

بدايات محمد على باشا

ولد فى مقدونيا التى تقع على بعد 320 كم غرب استانبول، فى قرية تدعى كاڤالا كانت فى هذا الوقت من أملاك الاتراك العثمانيين فى البلقان .يقال ان أصوله من البانيا، بعد وفاة أبواه أخذه عمه طوسون آغا لتربيته فى قرية كافالا لكن توفى بعدها بسنوات قليلة ، فبقى محمد على وحيداً مرة أخرى فأخذا صاحب لأبوه اسمه (جربتجى) فى راوسطا واستقر فى بيته مع ولاده. وقد عانى محمد على كتير فى طفولته و صباه

كان هناك تاجر فرنسى كبير فى مدينة كافالا يدعى ميسو ليون ، وكان هذا التاجر يساعد محمد على فى صباه حيث رأى فيه الفطنة والنباهة وفى عام 1820معندما تولى محمد على حكم مصر أرسل لمسيو ليون دعوة لاستضافته وتكريمه فى مصر، على مساعدته له فى صباه ، قبل مسيو ليون الدعوة لكنه توفى قبل مجيئة إلى مصر وقد حزن عليه محمد على كثيراً وأرسل هدية إلى أخت مسيو ليون فى ذلك الحين تبلغ قيمتها عشر آلاف فرنك .

تربى محمد على فى بيت صديق والده (جربتجى) فى راوسطا ، و مثل أبناء تلك المدينة تعلم من صغره اللعب بالسيف والجريد و أظهر مهاراته ، وحين كبر انضم للجهاديه (الجيش الألبانى) اللى كان (جربتجى) يشرف عليها ، وحين أظهر قدراته فى تحصيل الضرايب قام (جربتجى) بترقيته لرتبة بلوك باشى ، ثم تزوج من (أمينه هانم نوصرتلى)، ثم ترك محمد على الجهاديه واهتم بالتجارة وزاد اهتمامه بتجارة الدخان ، وفى ذلك الحين كانت تجاره رائجه فى المنطقه ونجح فيها محمد على باشا و اشتهر. ، وكان حب محمد على للتجاره مما اكتسبه من مسيو ليون التاجر الفرنساوى وبطبيعة الحال هذا كان من اسباب اهتمامه بالتجاره بعد حكم مصر.

استمر محمد على يعمل بالتجاره إلى عام 1801م عندما قرر الباب العالى جلاء قوات الحملة الفرنسية من مصر. وقد كان مجئ الحملة الفرنسية إلى مصر سنة 1798 بقيادة نابوليون بونابرت حيث انتصرت تلك الحملة على المماليك و احتلو مصر الذى دام ثلاث سنوات ، وظل السلطان العثمانى يرسل عسكر وقوات عثمانية كى يخرجهم من مصر بمساعدة الانجليز . فى سنة 1801 أرسل العثمانيين على مصر حمله كبيره تحت قوماندية حسين قبطان باشا بمشاركة الانجليز.

محمد على فى القاهره

محمد على كان من ضمن المرتزقه الألبان الذين انضمو للقوات البحريه بعد أن تم تجنيده مرة أخرى في راوسطا كمعاون لـ (على آغا) على رأس 300 مرتزق ألبانى (ارناؤوط). وكان (على آغا) ابن جربتجى الرجل الذى عاش فى كنفه محمد على فى صباه. وعندما وصلت المراكب (ابو قير) هزمت قوات المرتزقة من الفرنسيين ،فعاد (على آغا) إلى بلاده وترك قواته تحت قيادة محمد على وكان قد ترقى إلى رتبة كبيرة . أما العثمانيين وبمعاونة الإنجليز استطاعوا أن يهزموا الفرنسيين وتم عقد اتفاقيه انسحب على إثرها الفرنسيين من مصر فى سبتمبر 1801. وكانت قوات الجيش العثمانى تتضمن جماعات من الأرناؤوط و الانكشاريه والغليونجيه ، وقد تركهم الباب العالى لحماية مصر السفلى و مدن الصعيد ، أما القوات الإنجليزيةالتى كانت بقيادة الجنرال (ويلسون) نزلو فى اسكندريهn; يساعدو فى تعيين والى عثمانى جديد ومحاربة المماليك المصرليه الذين كانوا يشنون الغارات الحربية على معسكرات الإنجليز فى محاولة لاستقلال مصر من الانجليز.

محمد خسرو والياً على مصر:

تم تعيين محمد خسرو باشا والى على مصر من قبل الباب العالى بمساعدة حسين قبطان باشا حيث ان خسرو كان فى الاصل من مماليكه. وبعد تعيينه ذهب إلى القاهره لاستلام مقاليدالحكم وقام بالقضاء على من كانوا مواليين للفرنسيين و كان لديه اوامر سريه من الباب العالى بالقضاء على المماليك بأية طريقه ، فأرسل قواتاً عسكرية إلى الصعيد كى يقضى على المماليك الموجودين هناك ، وعندما أحس المماليك بالخطر استنجد المماليك بالفرنسيين مرة أخرى لكن الاتصالات لم تؤتى بنتيجة فى صالح المماليك وايضاً تلك القوات التى أرسلها خسرو باشا رجعت من الصعيد بدون تحقيق نصراً ، و استمر خسرو باشا يحارب المماليك فى مناطق مختلفه و يشن حملات عليهم. وفى أثناء تلك الحملات التى كان يرسلها خسرو باشا كان محمد على قد ترقى وأصبح قائداً على 4000 من المرتزقة الألبان ، وأرسل خسرو باشا تعليمته إلى محمد على بمساعدة إحدى الحملات لكنها هزمت قبل وصول قوات محمد على ، فزعم قائد الحملة أن تأخر إمدادات محمد على بالقوات كانت سبباً فى هزيمة الحملة وأرسل بلاغ لخسرو باشا بهذا الأمر. وصدق خسرو باشا الذى كان يكره محمد على ما زعمه قائد الحملة وأمر بقتل محمد على سراً ،

وأرسل إلى محمد على بزعم أنه يحتاجه لمناقشة أمور الجيش وكان ذلك فى منتصف الليل ، لكن محمد على انتبه إلى تلك المكيدة ولم يذهب إلى خسرو باشا فى قصره ، واتصل محمد على بالمماليك وتحالف معهم ضد خسرو باشا واستطاعت قوات المماليك المتحالفة مع قوات محمد على أن تخرج قوات خسرو باشا من القاهرة فهرب خسرو باشا إلى دمياط ، فقام الباب العالى بتعيين طاهر باشا لكنه قتل واحتل محمد على قلعة القاهرة

حاول احمد باشا والى الشرطه أن ينصب نفسه والياً على مصر لكن المماليك استطاعت أن تطرده من القاهره ثم انتقلوا إلى دمياط ووصلوا إلى خسرو باشا واسروه و أتوا به إلى القاهره و سجنوه فى القلعه.

عندما علم السلطان العثمالى فى استانبول بما حدث فى مصر أرسل والى اسمه (على باشا الجزائرلى) و بعد وصوله إلى القاهره بدأ المكائد بالمماليك وقوات محمد على .

موقف المماليك من الحكم فى مصر :

كان للمماليك زعيمين (محمد الألفى – عثمان البرديسى) وكان هذان الزعيمان يتطاحنان على السلطة فى مصر ولكل واحد منهم قوات عسكرية خاصة به ، حاول محمد الألفى أن يذهب إلى انجلترا طالباً منهم أن يساندوه فى حربه ضد عثمان البرديسى فاستغل محمد على غياب محمد الألفى عن مصر

وأوشى بمحمد الألفى عند عثمان البرديسى فدبر مكيدة لقتل الألفى عند وصوله إلى القاهرة فانتبه الألفى وهرب إلى الصعيد ولم يرجع القاهرة مرة أخرى ، ظن عثمان البرديسى أن الأمور أصبحت تجرى لصالحه ففى عام 1804 وشى محمد على بالبرديسى لدى قواته العسكرية التى لم تتحصل على رواتبهم واتفق معهم أن يتمردو ويطالبو برواتبهم المتأخره فثارو عليه وهددوه ففرض البرديسى ضرائب باهظة على سكان القاهرة حتى يستطيع دفع رواتب الجند وقام بتحصيلها بعنف وقسوة فثار عليه أهل القاهره وخرجت مظاهرات مما اضطره إلى الهروب من القاهرة من القاهره

خورشيد باشا والياً على مصر:

لم يتبقى بالقاهرة سوى محمد على من رجال السلطة بعدما هرب الأميرين وجمع محمد على العلماء ومشايخ الأزهر حوله وتفاوضو على اطلاق سراح خسرو باشا و إرجاعه لمنصبه فوافق محمد على و أرجعه لمنصبه لكن لم يدم به سواء يوم واحد ثم أرسل إلى رشيد و من هناك تم ترحيله إلى الاستانه و كل هذا كان بمكر وتدبير محمد على و تظاهر بإن مصر تحتاج إلى والى عثمانى و اقترح تنصيب خورشيد باشا الذى كان فى اسكندريه فوافق العلماء و المشايخ و على ان محمد على يكون نائبه بصفة قائمقام و أرسلوا إلى الباب العالى فى الاستانه يبلغوه و يطلبوا الموافقه فوافق السلطان العثمانى

بعدما تم تعيين أحـ مد خورشيد باشا والياً على مصر خاف على نفسه من قوات محمد على فاستعان ببعض المرتزقة المغاربة وكان يطلق عليهم (الدلاتية) ، ففهم محمد على مقاصد خورشيد باشا وبمكر ودهاء أقنع محمد على (فرق الدلاتية) أن يحصلوا على الضرائب من سكان القاهرة بالعنف وأن يستغلوا نفوذ خورشيد باشا فى تنفيذ ذلك مما أثار غضب أهل مصر وعلى الأخص العلماء ومشايخ الأزهر .

محمد على باشا والي على مصر



مشايخ القاهره بزعامة عمر مكرم طالبوا

بتنصيب محمد على والى على مصر.

فى اوائل مايو 1805 وصل إلى محمد على على قرار بتعيينه والى على جدة فى شبه الجزيره العربيه ففرح خورشيد باشا بقرب خلاصه منه ، وخرج محمد على على اعتبار أن يذهب إلى جدة لكن فى قرارة نفسه لم يريد أن يترك مصر ، ,ورفض تنفيذ أوامر الباب العالى وعمل على اجتماعات مع العلماء ومشايخ الأزهر فى محاولة لافناعهم بأن حكم خورشيد باشا ظالماً فاتفق العلماء والمشايخ على تولية محمد على

وأبلغوا خورشيد باشا بالأمر وطالبوه بالنزول من القلعة فرفض الرضوخ لمطالب المشايخ والعلماءفحاصروا القلعة فأرسلوا إلى الباب العالى بما حدث إلى أن وصل فرمان فى 9 يوليه 1805 من السلطان العثمانى بعزل خورشيد باشا و تنصيب محمد على مكانه والى على مصر ، فخرج خورشيد باشا من القلعه و خرج من مصر.

حملة فريزر :

رأت انجلترا من جهتها ان التطورات التى حدثت فى مصر ضد مصالحها و نفوذها فأرسلت حمله عسكريه على مصر بقيادةالجنرال فريزر فى محاولة منها لإرجاع السلطة إلى المماليك ، لكن المماليك فى هذه الأثناء فى تشتتو فى نواحى مصر فاستقرت الحمله فتره على ساحل مصر ولم تستطع الوصول إلى العاصمة (القاهرة) فاتفقت مع محمد على على صلح وخرجت من مصر غير محققة لأهداف انجلترا. فأصبحت مصر فى قبضة يد محمد على باشا فبدأ فى تشكيل حكومة جديدة فى مصر.

الغايه تبرر الوسيله

قضى محمد على سنواته الأولى من حكم مصر فى تقوية قبضته على مقاليد الحكم و ازاحة كل من يمثل تهديداً لسلطته ، ، وكان أول ضحايا محمد على باشا كان الشيخ عمر مكرم اللى غدر به محمد على رغم أنه هو الذى لعب دور كبير فى تنصيبه والياً على مصر

وروج لولايته على مصر. عمر مكرم الذى كان معروف بنصرة العدل و محبوب من عامة الشعب رأى ان محمد على خرج عن الخط و استأثر بالسلطه و ولم يوفى بالعهد ، ، وفى صيف 1808 جاء فيضان النيل منخفضاً فعم مصر الغلا و القحط و عانى المصريين فى ظروف غاية فى الصعوبة مما أجبر الحكومة على فرض الضرايب و المكوس و الأتاوات التى كان محمد على يفرضها عليهم فشكى أهل مصر إلى عمر مكرم و المشايخ ، وفى فى 1809 تم فرض ضرايب ومكوس جديدة على الناس ، ولم يفرضها على المشايخ حتى يكونوا فى صفه فهاج المصريين بكل طبقاتهم وأرسل عمر مكرم و المشايخ عريضه تطالب برفع الظلم عن كاهل الشعب. كان محمد على يعلم أن عمر مكرم له شعبيه كبيره و الناس بتحبه استطاع بمكره انه يوقع بين الشيخ عمر مكرم وبعض مشايخ الأزهر عن طريق مشايخ منافسين لعمر مكرم وتم عزل عمر مكرم ونفيه فى دمياط ، و حزنت الناس على عمر مكرم وبكت على فراقه. و بعد ما غدر محمد على بعمر مكرم و خلص منه جاء دور المماليك للقضاء عليهم.

الدولة العثمانية والحركة الوهابية :

رأى العثمانيين ان الحركة الوهابية تهدد نفوذهم فى شبه الجزيرة العربية الوهابيين ، فطلب السلطان محمود التانى مساعدة محمد على فى اخضاعهم.

والوهابيه حركه دينيه اسسها محمد عبد الوهاب (1695–1719) وكانت فى هذا الوقت تحت قيادة سعود بن عبد العزيز و مسيطره على شبه الجزيره العربيه. فى 1802 شريف مكة فى ذلك الوقت كان يرسل للسلطان العثمانى سليم التالت يبلغه انه فتح بلاد الحجاز و انه هدم قباب القبور و الجوامع و طلب منه انه ألا يرسل المحمل مرة أخرى ، إضافة إلى أنه طرد كل الاتراك الذين كانو فى مكه. و فى 1804 استولى الوهابيين على المدينه المنوره و استمر زحفهم فى اليمن جنوباً وعلى الشام شمالاً و منعوا المسلمين الذين ليسوا على مذهبهم من الحج ، وفى سنة 1811 كان نفوذهم زاد فى كل شبه الجزيره العربيه. وفى هذه الظروف طلب السلطان العثمانى من محمد على انه يساعده ، وكان له هدفاً أخر وهو تبديد قوة محمد على العسكرية فى شبه الجزيرة العربية ويشتت جيشه فى مغامرات عسكريه خارج مصر ، لكن محمد على لبى طلب السلطان و جمع القوات اللازمه للحمله و هو فى الأغلب يعلم هدف السلطان العثمانى ، لكن كان يعلم انه لو سيطر على شبه جزيرة العرب وأصبحت هى أيضاً فى قبضته مع مصر سيكون قد سيطر على على البحر الاحمر و منطقه استراتيجيه فى قلب الشرق الأوسط

كان عدد قوات الحمله كان 4000 عسكرى تحت قيادة ابنه طوسون باشا و طلب محمد على من الباب العالى إرسال اخشاب للسويس كى يبنى بها المراكب اللى سوف تنقل العسكر و الاسلحه إلى الحجاز عبر البحر الاحمر فأرسل له السلطان اخشاب صنع منها محمد على 18 مركب.

وفى هذا الوقت كانت علاقة محمد على بالمماليك علاقة حميمة ولم يمثلوا له تهديداً حقيقياً حيث أنهم اكتفوا بمكاسبهم الاجتماعيه و الماديه وعاشو فى الصعيد و القاهره و نواحى مصر و اعدادهم لم تكن كبيره لدرجة انهم كانو ممكن أن يمثلو تهديد فعلى لمحمد على إن كانت أعدادهم كبيرة. لكن رغم هذا محمد على ارتكب ضدهم جريمه فظيعه فى الوقعه المعروفه باسم مدبحة القلعه.

ففى فبراير 1811 خرج قادة الحمله من القاهره و عسكروا فى قبة العزب فى الصحرا و هناك انتظروا الامر بالتحرك. وحدد محمد على يوم الجمعه 1 مارس 1811 يوم لتوديع طوسون باشا و عمل وليمه للإحتفال بخروجه للحجاز على راس الحمله لمحاربة الوهابيين و عزم اعيان البلد الذين كان من ضمهم امراء المماليك المصريه وطلب منهم المجىء بالزى الرسمى. واجتمع الاعيان و الامراء فى القلعه وذهب شاهين بيك بجنوده

و استقبلهم محمد على بترحاب ، وحينما جاء وقت الوليمه امر بخروج موكب وجعل الامراء المماليك يمشوا فى اخره و لما قربو من باب العزب فى ممر ضيق مابين الباب والحوش العالى امر بغلق أبواب القلعه وأمر مرتزقته الألبان (الارناؤوط) بمهاجمة الامراء المماليك فجاءه فلما هجمو عليهم أصاب الامرا الذعر وعرفو ان محمد على جهز لهم مكيدة فحاولو الهرب عن طريق تسلق الجدران لكن المشاه الذين كانو ورائهم فتحو النار عليهم من بنادقهم فحاول الامراء أن يهربو من طرق و مسالك تانيه لكن كان صعب عليهم بسبب ضيق المكان على الأحصنة التى كانو يمتطونها فنزلو من على الأحصنه وارتجلوا وهم شاهرين سيوفهم لكن مرتزقة محمد على الألبان كانوا يطلقوه عليهم النيران من بنادقهم من فوق الأسطح فحاولو أن يلجأوا للمبانى لكن لم يفلحوا من الهروب وتم قتل شاهين بيك أمام ديوان صلاح الدين و قطعوا راسه و ودوها لمحمد على. قطع الألبان رووس امراء

عدد المماليك الذين عزموا على الوليمه كان 400 لم ينج منهم غير اتنين هم إبراهيم بيك الذى غاب بسبب سفره خارج مصر و مراد بيك اللى وصل القلعه متأخر فلما رأى الموكب يتحرك ناحية باب العزب وقف خارج الباب ينتظر خروج الموكب لكنعندما اغلقت الابواب فجاءه وسمع ضرب الرصاص عرف ان محمد على غدر بالمماليك فهرب بحصانه وجرى على الصحرا فى اتجاه الشام. و يقال انه قفز بحصانه من فوق سور القلعه فى جهة الميدان

فقتل الحصان ونجى هو و هرب. بعد المذبحه الرهيبه نادى محمد على فى القاهره ان شاهين بيك زعيم المماليك قتل فحدث اضطراب و ذعر فى نواحى القاهره و خرج العسكر و نهبوا بيوت المماليك و سبوا نسائهم و جواريهم و اتبعتهم عامةالناس و نهبوا البيوت و الدكاكين فى نواحى القاهره. تخلص محمد على من جثث المماليك المقتولين بحفر حفره كبيره رماهم فيها و ردمها. زوجته أمينه نوصرتلى جاء لها صدمه من المدبحه التى نفذها محمد على و امتنعت عنه من يومها إلى يوم مماتها. وقد لخص المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى رأيه فى مذبحة القلعه بقوله : " مذبحة القلعة كانت نقطة سيئه فى تاريخ محمد على."

تانى يوم بعد المذبحه نزل محمد على من القلعه و معاه ابنه طوسون و وداروا فى أحياء القاهره و لتهدئة الناس و امر محمد على بوقف عمليات النهب والسلب بعد مارأى ان القاهره تم خرابها ، لكن استمر فى تحريضه ضد المماليك و طلب من الناس ان يقبضوا على اى مملوكى يروه فى اى مكان فى مصر ، و فوض (محمد اغا كتخدا) الذى كان يكره المماليك بمهمة قتلهم فى نواحى مصر فلم يرحم أحد ولا حتى العجزة منهم وروووسهم ترسل من قبلى و بحرى إلى القاهره و تعلق على باب زويله و باب القلعه. قام محمد على بتوزيع بيوت المماليك الذين تم قلتهم على خواصه .

وبمذبحة القلعه وتخلصه من المماليك و من قبلهم من عمر مكرم و الزعامات الشعبيه أصبحت مصر تحت سيطرة محمد على بكاملها وبدأ يجهز مهماته التانيه و خاصة حملته على الوهابيين فى الحجاز بوصفه عثمانى مخلص للباب العالى.

الخلاصة :

منذ ان تسلم محمد علي مقاليد السلطه في مصر عام 1805 اخذ يسعى لتثبيت حكمه والتخلص من اعداءه ومنافسيه فقام بعدة خطوات لتحقيق هذا الهدف منها:

1- قام محمد علي بالتخلص من زعماء الشعب المصري فاغتنم فرصة خلافه مع الشيخ عمر مكرم والشرقاوي فنفاهم الى صعيد مصر.

2- اجبر محمد علي السلطان العثماني ان يمنحه تعيين دائم حتى يضع حدا لاطماع الدول الاوروبيه والقضاء على المعارضه الداخليه ففي عام 1806 جدد السلطان العثماني ولايته على مصر.

3- قام محمد علي بوضع حد للنفوذ الاجنبي في مصر بحيث وقع على معاهدة مع بريطانيا تم بموجبها جلاء القوات البريطانيه عن مصر.

4- لم يبق امام محمد علي لبسط سيطرته على مصر سوى المماليك (حكام مصر سابقا) وهم اشد معارضيه فقام محمد علي بالغاء ضريبة الالتزام لان معظم الملتزمين من المماليك فهكذا عمل محمد علي على ضرب مركز المماليك الاقتصادي بالاضافه الى ذلك قام محمد علي بتدبير مؤامره للتخلص من المماليك نهائيا فقام بدعوتهم للاشتراك في حفل رسمي في القلعه لتوديع ابنه طوسون الذي كان متجها لمحاربة الحركه الوهابيه في الجزيره العربيه فتم ذبح المماليك في القلعه فبهذا اصبح محمد علي سيد الموقف في مصر بدون منافس ومهدت الطريق امامه لتحقيق اهدافه الراميه الى بناء امبراطوريه عظمى تحمل اسمه واسم ابناءه واحفاده من بعده.

محاربة الوهابيين



حملة محمد على ضد الوهابيين.

بدا محمد على باشا يجهز لخروج حملته العسكريه ضد الوهابيين فى الحجاز ، فأرسل لشريف مكه يعلمه أنه سيرسل حملة عسكريه كى ينقذه من الوهابيين و فتح طريق الحرمين الذى يوصل بين مكه و المدينه و طلب منه انه يمهد الطريق لوصول العسكر. عندما علم زعيم الوهابيين بموضوع الحمله جمع 15.000 محارب واستعد لمواجهتها.

خرجت مراكب الحمله تحت قيادة طوسون باشا من السويس و فرغت العسكر و الاسلحه فى ينبع على الساحل الشرقى للبحرالاحمر ، و بعد الاستيلاء على ينبع تحركت الحمله إلى صفر اللى كان فيها معسكر الوهابيين و شن طوسون هجوم فتقهقر الوهابيين ثم جمعوا قواتهم وهاجمو قوات طوسون اللى اضطرت من قوه الهجوم انها تترك معداتها ومؤنها و ترتد على ينبع. لما سمع محمد على بما حدث أرسل مدد لإبنه طوسون فقاد طوسون القوتين

و اقتحم المدينه واستسلمت الحاميه الوهابيه فقبض على قائدها و بعته للأتراك فى الاستانه فأعدموه مباشرة ، وترك الوهابيين مكه و دخلها طوسون و فرح محمد على بأخبار الإنتصارات اللى حققها ابنه.

فى صيف 1812 هجم الوهابيين على عسكر طوسون فى شرق مكه فى عزالحر واستولو على مكه ثم اتجهوا إلى المدينه وأصبحت كل المنطقه مابين مكه والمدينه فى ايديهم. لما علم محمد على بالأخبار خرج من مصر على راس جيش ضخم فى 28 اغسطس 1813 و استقبله شريف مكه ، و بعدما حج خلع شريف مكة من منصبه حينما رأى أنه لا يعتمد عليه و بعته هو و عائلته إلى القاهره ومنها إلى سالونيكى التى اتوفى بها شريف مكة بعد اربع سنين. وتوفى زعيم الوهابيين فى درعيه فى 17 ابريل 1814 و بوفاته قلت سطوة الوهابيين. اتولى زعامة الوهابيين عبد الله ابن سعود و حصلت بينه و بين محمد على مناوشات عسكريه لم يكن لها نتائج. و فى 10 يناير 1815 قامت معركه كبيره بين محمد على والوهابيين وانتهت المعركه بإنتصار محمد على وتقدم طوسون على نجد لكن توقفت قواته قبل أن يصل درعيه. رجع محمد على مصر بعدما فتح طريق الحرمين لكن لم يستطع أن يقضى على الوهابيين بالكامل.



سليمان باشا الفرنساوى.1860-1788

فى مصر بدأأ محمد على يخطط لإدخال النظم الفرنسية فى العسكريه. حيث رأى محمد على الجيش الفرنسى فى مصر ايام الحمله الفرنسيه و كان معجب بالنظم العسكرية التى ابتعها نابوليون بونابارت .فى هذه الايام عسكر مصر كانوا يعملون على النمط التقليدى القديم ولم يعلموا شيئاً عن تنظيمات الخطوط و المربعات و غيرها اللى كان يستخدمها نابوليون فى معاركه و كانو بيخوضو المعارك بفرق او وجاقات كل فرقه منها تحت قائد يهاجم بها من غير تنظيم محدد.

كان محمد على مدركاً انه لم يستطيع أن يتوسع و يواجه الجيوش التركيه و الاوروبيه الحديثه بنظام جيوش العصور الوسطى .وقام محمد على بمباحثات مع الكولونيل سيف المعروف بـ سليمان الفرنساوى و طلب منه انه يدرب عسكر مصر على النظم و التحركات العسكريه الحديثه. فى يوليه 1816

امر محمد على بتدريب عسكر مصر على النظم العسكريه الحديثه ، لكن هذا الأمر لم يستسيغه عسكر الأرناؤوط الألبان الذين اعتبروه بدعه فتمردوا و تجمهرو عند قلعة القاهره و طالبو محمد على ان ألا يدخل هذه النظم الحربية ، و هذا لأنه بطبيعة الحال تطبيق هذا النظام عليهم كان معناه نهاية نفوذهم و مكانتهم ، فرجح محمد على الموضوع العقل و ولم يضغط عليهم ولم يفرضه على العسكر الأرناؤوط ، و استكفى محمد على بتدريب العساكر المصريين على النظم الحديثة وهو يعلم ان المرتزقه الألبان أصبح لا فائدة منهم خاصة بعد ما تأمروا عليه و انقذه منهم نائبه لاظوغلى باشا.

المدرسة الحربية وورفع كفاءة الجيش

محمد على انشأ مدرسه حربيه فى الخانكاه بالقرب من المطريه يتعلم فيها العسكر اللغات و التنظيمات الحربيه ، و انشأ مدرسه للطوبجيه ، و حول سراية مراد بك فى الجيزه لمدرسة فرسان ، و فتح فى القاهره ورش لسكب المدافع و تصنيع احتياجات العسكر. كل هذا كان تحت اشراف الكولونيل سليمان بك الفرنساوى. سليمان عمل جيش من العسكر النظامى قوامه 25.000 عسكرى استخدمهم بعد كهذا فى حروب الموره و الشام و غيرها

فى تلك الأثناء رجع طوسون باشا من الحجاز واستقبلته الناس استقبال حاشد فى القاهره ، وذهب إلى محمد على بالاسكندرية ، ثم مات فجأة طوسون باشا بعد مرضه بمدة بسيطة . فى الوقت هذا كان محمد على فى القاهره فلما سمع ان ابنه مريض وذهب إليه فى الاسكندريه ،فلما وصل علم انه توفى ،واتنقل جثمان طوسون إلى القاهره ، ودفن فى جامع الامام الرأبعى خلف جبل المقطم فى المدافن الخديويه حالياً

بدأ محمد على يهتم بموضوع الوهابيين مرة أخرى بعد وفاة ابنه طوسون باشا حيث تجدد خوفه من رجوعهم مرة أخرى ،فأرسل حملة عسكرية جديدة تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا.

فى 3 سبتمبر 1816 خرج ابراهيم باشا بحملته من القاهره و ركب النيل إلى قنا فى الصعيد و من هناك دخل الصحراء إلى القصير شرقاً و طلع بالمراكب على ينبع ثم تحرك إلى المدينه و تربص هناك بقواته للتحضير لهجوم كبير مثلما نصحه محمد على و انضمت إليه قبايل عربيه. و لما كمل استعداداته بدأ الحرب و واستمر فى الهجوم على عساكر الوهابيين إلىأن هزمهم و قبض على عبد الله بن سعود زعيم الوهابيين وأرسل لمحمد على فى مصر فوصل القاهره فى 17 نوفمبر 1818

وهي الاحتلالات التي قام بها ابراهيم بن محمد علي بين سنوات 1816–1818. نجح فيها ابراهيم باشا من احتلال نجد والسيطره على الدرعيه عاصمة السعوديين فهكذا استطاع ابراهيم باشا القضاء على الحركه الوهابيه في شبه الجزيره العربيه

نتائج الحملة:

- تمكن محمد علي باشا من القضاء على الحركة الوهابية سياسيا ولكنه لم يتمكن من القضاء عليها في نفوس الناس حيث عادت الى الوجود في اواخر القرن التاسع عشر من جديد
- خضعت الحجاز لحكم محمد علي باشا فترة طويلة من الزمن
- حقق محمد علي باشا بعض اطماعه التوسعية وضمن سيطرته على سواحل البحر الأحمر الا انه لم يتمكن من السيطرة التامة على التجارة من والى الهند كما كان يطمع

كافئ السلطان العثمانى ابراهيم باشا بخلعة شرف وعينه والى على مكه ، وانعم على محمد على بلقب " خان " و هذا كان لقب كبير لم ينله من ولاة العثمانيين غير حاكم القرم.

حروب السودان و المورة

التجنيد الإلزامى فى عهد محمد على :

بعدما فشل فى استخدام السودانيين كعسكر لجيشه لم يجد أمامه غير تجنيد المصريين. فى سنة 1822 اصدر محمد على قرار بتجنيد المصريين اجبارى و اقتحم عساكره و الكرأبين القرى المصريه و خطفو الفلاحين و ربطوهم بالأغلال والقماطات وساقوهم مثلما العبيد على المعسكرات لتجنيدهم بالإجبار كى يرسلهم فى غزواته ويحققون له حلمه التوسعى. خطف الفلاحين كان بيبدأ بتكليف مدير كل مديريه بجمع العدد المطلوب و هو بدوره كان يوزع العدد على القرى التابعة للمديريه فيذهب العمد و المشايخ بمساعدة العساكر منقضين فجاءه على القرى و يقبضوا على الفلاحين و يسوقوهم مثلما العبيد والمجرمين وهما مربوطين بالسلاسل و الأغلال ويرسلوهم إلى عاصمة المديريه بدون تمييز بين الأصحاء والمرضى. و بعد التجميع فى المديريه كانوا يذهبوا إلى مراكز الفرز. فكرة التجنيد الاجبارى اللى فرضها محمد على لم يتقبلها المصريين. الفلاحين المصريين حاولوا الهروب من هذا التجنيد عن طريق عمل عاهات فى اجسامهم عن طريق حاجات مثلما قطع صوابعهم

و حط سم فيران فى عينيهم حتى يتشركو ولا يدخلوا الجيش ، لكن محمد على رد بعمل اورطه اسمها اورطة المعوقين حط فيها المتشركين عشان يورى المصريين انهم سوف يتم تجنيدهم مهما عملو و سواء كانو معافين او معاقين. استخدم محمد على شعارات متعددة ما بين الدينية والوطنية لتحفيز المصريين على قبول التجنيد.

فى سنة 1823 هب كل الصعيد ضد استبداد محمد على و طغيانه ، و بعد الصعيد ثار المصريين فى قرى المنوفيه ، فذهب محمد على بنفسه و معه مدافع و قمع ثورتهم بعنف و وحشيه و كسر شوكتهم .

بعد الانتصار على الوهابيين بدأ محمد على يفكر فى فتح السودان للبحث عن الهذاب و المعادن النفيسة و الحصول على المنتجات مثلما الصمغ و العاج و غيرها ، فأرسل عسكر على السودان تحت قيادة ابنه التالت اسماعيل باشا. السودان فى ذلك الوقت لم تكن بلداً واحداً لكن كانت تسمى بلاد السودان و كانت تتكون من قبائل وامارات وممالك مثلما دارفور و كوردفان و غيرها.

استطاع اسماعيل باشا ان ياخد قريه بعد قريه و منطقه بعد منطقه و يخضع قبيله وراء قبيله إلىأن وصل للجندول السادس و استسلمت قبائل الشائتيه بعد مقاومة بسيطه وأصبحت سنار وكردوفان من املاك محمد على ، ثم تحرك اسماعيل باشا إلى فازوغلو ثم ظهر الوباء و قضى على اعداد من العسكر فأرسل له محمد على قوات جديدةا تتكون من 3000 عسكرى بقيادة احمد بك الدفتردار.

لكن اسماعيل باشا قتل فى شندى بطريقه غريبه بخدعه قام بها ملكها نمر بعد أن ضربه اسماعيل باشا وهدده بالخازوق. وانتقم احمد بك الدفتردار لقتله بمجزره قتل فيها اعداد كبيره و بهذا اتفتحت السودان و بقت بلد واحهذا خاضعه لمحمد على باشا.

معركة نافارين

فى سنة 1824 السلطان العثمانى محمود الثانى عين محمد علي حاكم علي الموره اليونان كى يساعده ضد الثوار اليونانيين فى حرب الاستقلال اليونانيه. ابراهيم باشا استطاع أن يحقق انتصارات كتيره بطريقه اذهلت الاوروبين و فى 1827 اتفقت روسيا و انجلترا و فرنسا على ان اليونان ليست تابعه للسلطنه العثمانيه و قرروا ضرب الاسطولين المصرى و التركى فقامت معركه بحريه اتعرفت بإسم معركة نافارين انتهت بهزيمة اساطيل مصر و تركيا. فى معركة نافارين خسرت مصر 30.000 بحار من ال42.000 بحار تابعين للاسطول و خسرت 19 سفينه من 31 سفينه و اعداد كبيره من الناقلات و مبالغ ضخمه

انتهت الكارثه بتوقيع معاهدة سمحت للقوات المصريه بالرجوع لمصر لكن السلطان العثمانى نجح فى استنزاف تابعه محمد على و اضعافه ، فمحمد على خرج من نافارين أضعف و بإمكانيات اقل مما كان عليه.

الزحف إلي الشام

أرسل ابراهيم باشا بجيشه على الشام ، و فى سنة 1832 حقق ابراهيم باشا انتصارات ضخمه على الجيش التركى بأقل خسائر و استولى على الشام بما فيها دمشق و حمص و غزه و حيفا و يافا و عكا ، واستمر ابراهيم يحقق انتصار تلو انتصار فى الشام و فى بيلان و دمر جيش تركى فى قونيه و اسر قائدهم فى غضون 7 ساعات و استولى عليها و استولى على كوتاهيه وكان على وشك دخول استانبول نفسها عاصمة الدوله العثمانيه .

وكان الاوروبيين لهم مطامع خاصه فى المنطقه وقلقوا من تقدم إبراهيم باشا وقرب وصوله إلى استنابول فاستنجد السلطان العثمانى بأعدائه الروس وعلى الفور استجابو و حركو اسطولهم للبوسفور بموافقة العثمانيين لاول مره فى التاريخ ، و لما رأت فرنسا و انجلترا الخطوه التى قامت بها روسيا والتى كانت تنافسهم على التركه العثمانيه ضغطو على السلطان العثمانى للاتفاق مع محمد على وفى نفس الوقت ضغطو على محمد على كى يوقف زحف ابنه ابراهيم باشا.

محمد على ادرك ان الاوروبيين لم ينتظروا كثيراً على تحركات إبراهيم باشا و طلب من ابراهيم باشا وقف الزحف. إلا أن ابراهيم باشا كقائد عسكرى منتصر لم يعجبه طلب محمد على و كان يرى ان دخول الاستانه هو الذى من خلاله يمكن تحقيق الصلح الذى به منفعه سياسيه. فدخول الجيوش المصريه عاصمة الدولة العثمانيه كان معناه انهيار الدوله العثمانيه و محمد على كان مدركاً ان إذا حدث هذا سوف تنشب حرب كبيرة على تقسيم ممتلكات الدوله العثمانيه و ويتحول الأمر إلى صراع مع القوى الاوروبيه مجتمعه. محمد على بلغ ابراهيم باشا: "إذا حدث هذا سوف تدخل الانجليز اسكندريه و الروس سوف يدخلوا استانبول و الدوله العثمانيه سوف تقسم مابين الانجليز و الروس ". وبطبيعة الحال الاوروبيين لم يكن لديهم مانع من ان تنهار الدوله العثمانيه لكن ليس على يد قائد شرقى قوى بإمكانيات عسكريه و اقتصاديه و حضاريه كبيره ممكن أن يحل محل السلطان العثمانى الضعيف الذى يحكم دوله بتحتضر.

نجح الاوربيين فى وقف زحف الجيش المصرى على استانبول وتمت المفاوضات وانتهت بـ " اتفاقية كوتاهيه " فى ابريل 1833 و هى اتفاقيه يعتبرها المؤرخين هدنه مسلحه مابين محمد على و الاتراك للإستعداد لجوله عسكريه جديده. لكن اتفاقية كوتاهيه ثبتت محمد على على ولاية مصر و الحجاز و الشام و أدنه و كريت و السودان التى أصبحت جزء من مصر ، و وهذا كان فى مقابل خروج الجيش المصرى من الاناضول . وبهذا أصبح لمحمد على امبراطوريه مساحتها 100.000 فرسخ يعيش فيها حوالى 7 مليون نسمه .

إصلاحات محمد على الاقتصادية

الإصلاحات الزراعية

وكان الاقتصاد المصري قبل حكم محمد على في غالبه اقرب إلى اقتصاد الحاجة منه إلى اقتصاد السوق، فضلا عن ركوده العام وتدهوره طوال فترة الحكم المملوكي – العثماني، إذ لم تكن هناك تنمية زراعية حقيقية، أو اهتمام حقيقي بالري نظرا لأن الحكومات المملوكية – العثمانية المتعاقبة كانت من أصول بدوية لا خبرة لها بالزراعة، الأمر الذي أدى إلى تصحر كثير من الأراضي الزراعية وتضاؤل خصوبتها فضلا عن أن نظام الالتزام في جمع الضرائب "الخراج" أرهق ألفلاح بسبب تحصيل أموال أكثر من المقرر "برانى" وجعل من الملتزم صاحب سطوة ونفوذ بين ألفلاحين حتى لقد اعتقد علماء الحملة ألفرنسية في مصر بأن الملتزمين ما هم إلا نبلاء، ومن ثم اتجه نابليون للقضاء عليهم أسوة بما فعلت الثورة ألفرنسية تجاه أمراء الإقطاع.

أما الصناعة قبل محمد على فكانت ما تزال بدوية بسيطة لم تصل إلى الآلية التي حققتها أوروبا بفعل الثورة الصناعية في منتصف القرن الثامن عشر، وكانت طوائف الحرف الصناعية وهي تنظيمات ذاتية حرة قد خضعت للحكومة، وأصبحت مشيخة الطائفة منصبا يتولاه من يدفع أكثر فلم تعد الطائفة والحال كذلك وسيلة للارتقاء بشئون الحرفة.

وأما التجارة وهي وسيلة أساسية في تدوير راس المال فقد كسدت في مصر بسبب تحول جانب كبير من التجارة العالمية "الترانزيت" إلى راس الرجاء الصالح في جنوب أفريقيا بعد الكشوف الجغرافية، كما تأثرت التجارة الداخلية بعدم استقرار الأمن واشتداد النزاع بين الطرق العسكرية المتناحرة والغا رات المتلاحقة لبدو الصحراء على القرى الآمنة، كما أدت اتفاقيات الإمتيازات التجارية بين الدولة العثمانية والدول الأوروبية والتي بدأت في 1535 مع فرنسا إلى سيطرة الأجانب على تجارة الصادرات عن طريق قناصلهم.

كانت تلك هي صورة الاقتصاد المصري بشكل عام عشية القرن التاسع عشر.

محمد على كان تاجر و تعامل مع مصر على هذا الأساس. فكانت نقطة البدايه فى تحديثاته قامت على فكرة إن القوه الإقتصاديه هى الاساس الوحيد للقوه السياسيه. الاقتصاد القوى بالنسبه لمحمد على كان لتحقيق دخل اقتصادى كبير لكى يمكن أن يوفر المال للجنود والجيش والسعى فى حروبه التوسعية

الغاء نظام الالتزام :

وعرف نظام الالتزام في مصر في العصر العثماني، الذي بدأ بعد هزيمة "طومان باي" آخر سلاطين المماليك على يد السلطان سليم الأول العثماني في موقعة الريدانية, وكان الملتزم يتكفل بتحصيل الضرائب المقررة على أراضي قرية أو أكثر وبهذه الصفة يصبح ممثلا للحكومة.

لغى " نظام الالتزام " وأصبحت الاراضى ملكه. فى نظام الالتزام الملتزم كان يشرف على الاراضى الزراعيه التى كان يزرعها الفلاحون لحسابهم و يدفعوا له الضرائب التى كان يأخذ منها أتعابه والباقى يرسله إلى الوالى. إلا ان محمد على صادر الاراضى و وقام بتأجيرها للفلاحين ، وضم اراضى الأوقاف لممتلكاته وأصبح هو المسئول عن المؤسسات الخيريه و المعاهد و الجوامع التى كان يتم الصرف عليها من الأوقاف. لكن محمد على استثنى أراضى الأعيان و رجال الجيش الكبار و اعفاها من الضرائب. وتم تسمية الأراضى المعفاه من الضرائب بـ " ابعاديات " حيث أنها استبعدت من الاراضى المصادره وأغدق على أسرته بالكثير من الابعاديات سميت فيما بعد " جنالك " او " سفالك ".

و فى 1813 تم عمل روك مساحى تحت اشراف ابنه ابراهيم باشا و المعلم غالى لمسح الاراضى الزراعيه وتحديد خراجها و فرض الضرايب ، و انشأ فى القلعه " الدفترخانه " لحفظ المستندات التى تخص الاراضى و ضرايبها وبهذا ضمن دخل مالى كبير. بعد ذلك ابتكر و فرض ضرايب كانت تزيد حسب ظروف الحروب التوسعية العسكريه و لما طالت حملته على الوهابيين فى شبه جزيرة العرب و زادت تكاليفها فرض ضرائب على " الارض الرزق " التى كانت فيما قبل معفاه. و عمل نظام اسمه " جمع عهده " وهذا كان نظام يدفع فيه الاعيان و المأمورين و رجال الجيش الكبار ضرائب الفلاحين من جيوبهم مقدماً

ثم يحصلوها من الفلاحين بالظلم و القهر. و فرض محمد على ضريبة دخل على الذكور من سن 18 سنه حسب ما يملكه الشخص. هذه الضريبه كانت تجمع فى القرى بالمنزل و فى المدن بالرأس ، و فرض ضرائب على رووس المواشى و الاغنام و النخل و مراكب النقل. و منع الفلاحين من بيع محاصيلهم للتجار

وفى المديريات قام ببناء شون لتخزين المحاصيل و بالاخص القطن و القمح و الأرز و القصب ، فكان يشترى المحاصيل من الفلاحين بأثمان زهيدة بعد أن يتم خصم ضرائب ايرادات الارض كان يصدرها بأسعار عاليه و وهكذا أصبح يملك الارض ويحتكر تجارة المحاصيل و استطاع أن يجمع مبالغ ضخمه لتمويل جيشه و الصناعات الحربيه .

ومن هذا الدخل استطاع بناء اساطيل تجاريه فى البحر الاحمر و البحر المتوسط ، وقام بتوسيع وتجديد ميناء اسكندريه و قضى على القراصنه فى البحر الاحمر و مهد الطرق البريه للقوافل التجاريه زاد النشاط التجارى مابين اوروبا و الهند عن طريق مصر بدلاً من راس الرجا الصالح فى جنوب افريقيا فزاد دخل مصر

تحديث مصر الاقتصادى من خلال الزراعة

حاول محمد على باشا تحديث مصر فى مجالات مختلفه واستطاع بسياساته الاصلاحية فى مجالات كتيره انه يكون دولة عصرية على النظام الاوروبي و أتى بالخبراء الاقتصاديين من فرنسا و ايطاليا حتى يساعدوه فى ان يبني اقتصاد قوي و حديث. ركز محمد على على تطوير مصر فى مختلف المجالات فى نفس الوقت.

محمد على قام بانقلاب فى الرى والزراعه الذى يمكن اعتباره مثل الانقلاب التكنولوجى و الصناعى الذى حصل فى اوروبا، فى محاولة للحاق بالتغيرات التاريخيه الضخمه التى كانت تحدث فى اوروبا.

أما بالنسبة للزراعة فان بصمات محمد على لاتزال واضحة عليها فقد بدا بمسح الأراضي وتنظيم الضرائب عام 1813 وحرر الفلاحين من التبعية لنظام الالتزام ووزع الأراضي على الفلاحين على شكل ملكية انتفاع

كما انه في حوالي في سنة 1821اكتشف الفرنسى جوميل القطن طويل التيلة والذى اعجب به محمد على .

ولذلك كان من الطبيعي أن تأتى الزراعة في المكان الأول في إطار الإصلاحات الاقتصادية، ومن المعلوم أن جميع الأراضي باستثناء أراضى الوقف كانت في أواخر القرن الثامن عشر موزعة على الملتزمين، وكانت مهمة الملتزم الأساسية تتمثل في "جباية الضرائب الواجبة على قريته أو مجموعة القوى الخاضعة لالتزامه ونقل هذه الضرائب إلى الخزانة المركزية أو الإقليمية".

ومع ذلك فقد أخذت حقوق الانتفاع التي حصل عليها الملتزمون بالتدريج تنتقل في اغلب الأحيان لصالح عائلاتهم بحيث أن ملكية الدولة أصبحت أشبه بقطعه من اللحم المفتت، تحول دون إقامة الدولة الحديثة المركزية التي يحلم بها محمد على، ومن ثم فقد عمد محمد على إلى القضاء على التناثر، وتشتت إيرادات الأراضي وألفوضى والواقع أن الأراضي الزراعية في مصر عام 1805 والتي كانت تبلغ مساحتها مليوني فدان كانت مقسمة إلى ست فئات :-

1) أراضى الأبعديات أو الشفالك، وتضم مائتي ألف فدان كان محمد على قد وزعها على أفراد أسرته ورجال الدولة وقواد الجيش وهي أراضى معفاة من الضرائب.

2) ثم أراضى الالتزام التي حولها – بعد مذبحة المماليك في القلعة 1811 – وتصفيتهم في مصر العليا 1812 إلى أراضى أوسية، وتشمل مائة ألف فدان منحها محمد على كتعويض للمماليك حتى لا تحرم عائلاتهم من كل مصدر للعيش.

3) ثم أراضى المشايخ أو مسموح المشايخ والمصاطب وهي تمثل 4% من الأراضي الزراعية في كل قرية بمجموع 154 ألف فدان، سلمت للعلماء الذين كانوا في نفس الوقت يقومون بعمل الملتزمين.

4) ثم أراضى الرزقة وهي ستة آلاف فدان معفاة من الضرائب، منحت هدايا أو عطايا للخبراء الأجانب العاملين في مصر.

5) ثم أراضى الأثر التي بقيت خالية وأعطيت للفلاحين.

6) وأخيرا أراضى العربان التي أراد محمد على أن يستقر فيها البدو.

لقد أدى انفراد محمد على بالحكم إلى انتهاجه سياسة مختلفة لتشغيل آليات جديدة دفعت الاقتصاد قدما إلى الأمام وربطته باقتصاد السوق، وفي خلال ستة أعوام "1808 – 1814" قام محمد على بسلسلة من الإجراءات انتهت إلى تغيير أوضاع حيازة الأرض الزراعية حيث ألغى نظام الالتزام العثماني وتم ضبط أراضى الأوقاف باسم الدولة وأعاد توزيع حيازة الانتفاع على ألفلاحين حيث خصص لكل أسرة ما بين ثلاثة إلى خمسة أفدنة حيازة حسب قدرة كل منها وفقا لعدد أفرادها ولا تنزع الأرض من المنتفع إلا إذا عجزت عن دفع ما لديها من أموال،

وقد أصبحت هذه الأراضي فيما بعد أساس الملكية الصغيرة وإلى جانبها استحدث محمد على حيازة الأبعديات والجفالك التي أصبحت أساس الملكية الكبيرة واستحدث ما عرف بمسموح المشايخ والمصاطب 5% تقريبا من زمام القرية للوجهاء والذي أصبح أساس الملكية المتوسطة فيما بعد، وبهذه السياسة أوجد محمد على شرائح اجتماعية ارتبطت بنظامه في الحياة والانتفاع.

لقد اجمع الخبراء على الثناء على سياسة محمد على في الأخذ بأساليب الزراعة الحديثة، فقد استحدث أساليب جديدة في الزراعة من شانها زيادة الإنتاج حيث استقدم مدربين وخاصة من بلاد اليونان، وانشأ مدرسة للزراعة وعمل على استغلال مياه نهر النيل الاستغلال الأمثل عن طريق شق القنوات والترع وإقامة القناطر للاستفادة بالمياه طوال العام، فقد أمر عن طريق السخرة بحفر ثلاث وثلاثين ترعة وبخاصة ترعة المحمودية الشهيرة وأقام خمسة عشر جسرا وثلاثة وعشرين سدا فوق النيل.

وكذلك فقد نوع محمد على المحصولان الزراعية وادخل نباتات جديدة لم تعرفها التربة المصرية من قبل سواء لاهميتها للسوق العالمية أو لأهميتها للإنتاج المحلى بدلا عن الاستيراد، ومن ذلك نبات ألفوه الأحمر الذي يستخدم في الصباغة ونبات النيلة الهندية الزرقاء والكندر "نوع من التيل" والقرطم الذي يستخرج منه العصفر والسلجم والسمسم والحناء وقصب السكر والزئبقي والبن وأشجار التوت لتربية دودة القز.... الخ

ومن جانب آخر فقد كثف زراعة القطن منذ عام 1821 حتى بدا تصديره من عام 1827 والذي حقق للدولة – صاحبة الاحتكار في مجال التجارة الخارجية – دخولا هائلة ففي عام 1845 بلغ المحصول 424.995 من القنطار وهو ناتج 212.472 من ألفدان بزيادة وقدرها 400% خلال عشرين عاما، وكان يدخل مصانع الغزل المصرية من هذا المحصول 80.000 قنطار كحد أقصى ويبقى حوالي 344.995 قنطار للتصدير.

وقد الزم محمد على ألفلاح بزراعة ما يقرره من الحاصلات النقدية على وجه الخصوص وتحقيقا لتنظيم الزراعة والاطمئنان إلى ما تدره كانت الحكومة تزود ألفلاح الحائز بلوازم الزراعة من بذور وأدوات يخصم قيمتها من حجم المحصول عند تسليمه وتوريد الباقي لشونة الحكومة بالسعر الذي تحدده الحكومة لتطرحه في السوق المحلى والخارجي بسعر منافس لتحقيق فائض لخزينة الدولة.

لقد وفرت سياسة محمد على الزراعية راس المال اللازم لتحويل الاقتصاد الزراعي المصري من اقتصاد غذائي إلى اقتصاد يقوم على محصول نقدي وذلك دون التضحية بإنتاج الحبوب التي كان يقوم عليها الاقتصاد الزراعي المصري منذ البداية.

ومع ذلك فأن المراقبين الأذكياء في ذلك العصر لم يخطئوا التقدير فقد أدركوا أن الأمر لم يكن مجرد العمل على الأخذ بالأساليب العصرية وتنظيم الدولة، إنما يتعداه إلى تأكيد استقلال مصر في مواجهة الدول الأخرى "كما يرى بحق، جون بورنج ممثل انجلترا في مصر.

لقد استطاع محمد على خلال عشرون عاما أن يحدث انقلابا في الاقتصاد المصري ويحدث تغييرا جذريا في النظام الاقتصادي السائد .. فهل من الممكن تصور مثل هذا الاتجاه داخل الإطار الاقتصادي الزراعي وحده؟ أن محمد على كرجل حرب ورجل سلطة كان يدرك احتياجات الجيش والدولة، فاتجه بعزم وإصرار نحو الصناعة أخذا بنصيحة الأجانب الذين كان يستميلهم إلى بلاطه أمثال : كلوت وجوميل وبوكتى والكولونيل سيف. ولكن المآثر الكبرى لمحمد على تقع في تطوير الرى ونشأت فكرة تشييد السدود وحفر الترع واقامة القناطر

أمر الباشا بإنشاء السدود كسد ترعة الفرعونية 1805

أمر بحفر نحو 40 ترعة بين كبيرة وصغيرة أهمها ترعة المحمودية وهى ترعة الإسكندرية القديمة أو خليج الإشرافية نسبة إلى الاسكندر المقدوني الذي قام بحفرها خلال القرن الرابع قبل الميلاد كي يمد مدينته الإسكندرية بالمياه أو نسبة إلى الملك الاشرف برسباى

الذي أعاد حفرها الان هذه الترعة سرعان ما طمست بالرمال وقد تطلب الحفر مجهودات جبارة ويبلغ طولها 80,252 كيلو متر واستغرق حفرها نحو عام واحتفل بافتتاح الترعة وبدخول مياه النيل إلى الإسكندرية مباشرة في 24 يناير 1820 .

أما القناطر الخيرية فقد كانت من أفكار الباشا العظيم طبقا لماذكر مدير الرى في ذلك الوقت لينان دى بلفون وان الباشا أمر بالبدء فى المشروع طبقا لتصميم لينان باشا سنة 1833 الا ان العمل توقف حتى سنة 1842 ثم استؤنف تحت إشراف المسيو موجيل واخيرا وضع محمد على حجر الأساس للقناطر الخيرية في 9ابريل 1847 للاستفادة من مياه النيل والحد من الفيضانات التى قد تعمل على غرق الاراضى الزراعية وحاليا اصبحت القناطر الخيرية مكانا سياحيا متفردا وذو طراز خاص ويستخدمه المصريون على اختلاف طبقاتهم ومستوياتهم الاجتماعية فى السياحة والترويح عن انفسهم وكذلك يزوره عدد كبير من السياح الاجانب والعرب. وان كان العمل قد بدا في المشروع قبل ذلك التاريخ وقد انتهى العمل في المشروع بعد وفاة محمد على وفى عهد سعيد باشا سنة 1861 ويقول المسيو شتيلد أن مشروع القناطر الخيرية كان يعد من اكبر أعمال الرى في العالم كله في ذلك العهد .

مشروع ترعة المحمودية :

كانت مدينة الاسكندرية حتى عام 1810 مدينة محدودة النشاط بالنسبة لاعمال التجارة التى يمارسها بعض الاوروبيين .

وفى عهد محمد على أقيمت المنشآت وانتشرت الصناعة وراجت التجارة .. وكانت مواصلات الاسكندرية مع داخل البلاد قائمة على اجتياز البحر عن طريق دمياط أو رشيد أو برا بالطريق المحاذى لشاطىء البحر ثم بالسفن بالنيل إلى القاهرة .

واستمر ذلك حتى عام 1819 عندما ازدادت الحاجة إلى طريق أفضل للمواصلات بالاضافة إلى اطراد الزيادة فى عدد سكان الاسكندرية وحاجتهم إلى المياه العذبة حيث لم يكن هناك سوى مياه الامطار فى الشتاء وما يحمله النيل أثناء الفيضان بواسطة ترعة الاسكندرية القديمة.. وكان فم ترعة الاسكندرية يقع عند الرحمانية .. كما كان من أهداف محمد على انشاء حدائق ومزارع فى ضواحى المدينة وانشاء طريق ملاحى بين النيل والاسكندرية ذى غاطس كبير .

لكل هذا تم انشاء ترعة المحمودية وبدايتها عند العطف وعمل فى حفرها (360) ألف رجل وتمت فى عام 1822 .

وفى عام 1842 أقيم هويس عند فم الترعة فى العطف تمكنت به السفن من السير طليقة كما أقيم هويس آخر عند منفذ الترعة إلى البحر فى ميناء الاسكندرية القديم . ووضع عند كل من الهويسين لوحة من الرخام نقش عليها تاريخ انشائهما على السلطان محمود .

وفى عام 1848 طلب محمد على من لينان وكان يشغل وقتئذ وظيفة مدير عام الاشغال العمومية اعداد مشروع لتغذية المحمودية فقدمها المشروع المطلوب وساهم فى اعداده كل من موجل بك وارنو بك وسرعان ما وضع فى حيز التنفيذ .. فقد ركبت الآلات عند العطف وبدىء فى العمل .. وقد كان عملا موفقا كل التوفيق ومعدا أحسن اعداد وكان يشرف على الادارة ببراعة المهندس الذى تولى اعداده .

ولكن الترعة بعد تشغيل الطلمبات امتلأت بالرواسب مما أثر على الملاحة مما استدعى ادارة الآلات لرفع منسوب المياه إلى أقصى حد مما نتج عنه ضرر كبير هذا بالاضافة إلى تزايد الارض الزراعية على جانبى الترعة من (11545) فدانا إلى أكثر من (20000) فدان .

وكان العيب أن الاشراف على مياه الترع لم يكن فى يد واحدة فقد كان لترعة المحمودية رئيس خاص وللمديرية التى تخترقها مدير كان منوطا به تطهير ترعة الخطابة فى حين كان أمر توزيع مياهها شرطا بشخص آخر هو مندوب مصلحة الاملاك الخديوية وكانت الآلات تابعة اداريا لنظارة المالية .

وهكذا عانت مدينة الاسكندرية من قلة مياه الشرب عامى 1869 ، 1870 فقد كان المسحوب من مياه الترعة يفوق ايرادها بكثير .. ولم تحسم المشكلة إلا بالاكثار من آلات التغذية وبناء سحارات ترعة المحمودية .

وقد سميت الترعة بهذا الاسم تيمنا بالسلطان العثمانى محمود واظهار لصادق ولاء محمد على له .

إنشاء الرياح التوفيقى :

بدىء بحفر الرياح التوفيقى فى عام 1887 بحيث يكون عرض المجرى (35م) فقط وكان قد أعد التصميم ايام محمد على باشا على اساس ان يكون مائة متر .. وقد اقتصر العرض رغبة فى الاقتصاد فى نفقات الكبارى والقناطر .. وقد تم حفره بعرض مائة متر فى المسافة من القناطر إلى جمجرة بالقرب من بنها وانتهى العمل سنة 1888 .

وقد بدىء فى انشاء قنطرة من الرياح التوفيقى بوضع اساسها فى اواخر عام 1887 وتمت فى عام 1889 وهى مكونة من (6) فتحات عرض كلاً منها (5) متر وهويس بعرض (8.50) متر والزمام المقرر عليها هو (450) الف فدان ومنسوب الفيضان هو (15.30) متر وأكبر تصرف لها هو (19) مليون متر مكعب فى اليوم .

وقد اطلقت المياه بالرياح التوفيقى 2 يناير 1890 وافتتح رسمياً باحتفال حضرة الخديوى توفيق فى 11 فبراير 1890 ونشرت الوقائع المصرية رقم (19) الصادر فى 12 فبراير 1890 وصفاً للرياح والاحتفال الرسمى ففى وصف الرياح التوفيقى جاء :

" هو من أجل المنافع العمومية واسنى المقاصد الخيرية التى وقعت لها حكومة الجناب العالى الخديوى فى هذه الاوقات السعيدة فانتفعت به البلاد والعباد وعمت منه الفوائد باعظم العوائد ".

وهو يبتدىء من امام القناطر الخيرية على البر الشرقى ماراً ببلاد مديريات القليوبية فى اتساع (35) متر من القاع قاطعاً السكة الحديد الطولى قبيل بنها والسكة الحديد الموصلة للزقازيق وبحر هويس (ومن نقطة التقاطع يأخذ بحر مويس مياهه فيه) ثم يتصل بترعة الساحل وفيها يكون امتداده إلى ما بعد ميت غمر

ثم يتفرع فى ترعة ام سلمى وترعة البوهية والترعة المنصورية وفيها يكون امتداده ايضاً حتى يتصل عند مدينة المنصورة بالبحر الصغير الموصل للمنزلة فارسكور الواصلة إلى ثغر دمياط ومنها إلى عزبة البرج ويصب فى البحر وطوله (192) كيلو متراً .

و قد أنشأت الحكومة السنية عليه جملة قناطر لانتظام جولة الرى منه فمنها قنطرة عند فمه الآخذ منالبحر الاعظم وكوبريان تحت السكة الحديد وقنطرة بالرياح بعد فم بحر مويس وهويسان أحدهما عند ميت غمر والثانى عند المنصورة واصلت جميع قناطر الفروع .

وقد واجهت عملية انشاء قنطرة الفم والهويس عدة عقبات بسبب نوعية التربة (الروبة) ولهذا فقد انشئت على (134) بئراً اما اسطوانية بقطر يتراوح بين (2.50 و 4.00) متر أو بلكات ذات مقطع مستطيل (2.50* 3.50) متر مفرغة من الداخل تحيط بالاساسات من الامام والخلف كسدود وتنزل بالتفريع إلى عمق (5.50) متراً من قاع الترعة ثم الترعة ملئت بالخرسانة وأغلقت المسافات بين الآبار بالخوازيق وكانت أسطحها العليا أو طى عن قاع الترعة بمقدار يتراوح بين (1.0 إلى 2.50) متر ووضعت فوق هذه الآبار طبقة من الخرسانة ثم أكملت مبانى الفم .

النظام الذى سار عليه محمد على فى ميزانية الدولة

كما أقام محمد على نظام التجارة الخارجية والداخلية ومن أهم ماثر قوله "اننى اجتهد لكى يكون منصرفى اقل من ايرادى " وكان واضح فهم الباشا للميزان التجارى .وهذا ماجعله مؤسس مصر الحديثة بحق

لكن نقطة الضعف فى فكرة محمد على هى انه كان يريد أن يخضع القوه السياسيه المنبثقه من التحديثات الاقتصاديه لأغراض عسكريه حيث ان هدفه الرئيسى كان بناء جيش جامد يمكن تمويله و تموينه من اقتصاد قوى، وكان هذا سبب انهيار التطوير الاقتصادى عندما القوى الأوروبيه اجبرته على تقليص الجيش المصرى.

نظام محمد على الاقتصادى عينه كانت على السوق العالميه فأنتج محاصيل زراعيه للتصدير بتدر عائد مالى كبير، "اقتصاد التصدير" وهذا كان تحول ضخم فى الاقتصاد المصرى و يعتبر أهم ملامح سياسته الاقتصاديه، و فى نفس الوقت محمد على تبنى مبدأ اكتفاء مصر الذاتى و اعتمادها على نفسها لضمان استقلالها و فى نفس الوقت بروزها كقوه دوليه. لكن ده سبب احتكار الدوله للانتاج الزراعى و الصناعى و التجارى الخارجى بحيث ان محمد على بقى الزارع و الصانع و التاجر.

النظام الإقتصادى المصرى الجديد جمع لاول مره تلت ابعاد رئيسيه و هى: الزراعه الكثيفه التى تدر مكاسب كبيره من تصديرها، و الصناعه الحديثه القايمه على اسس اوروبيه عصريه، و التجاره الخارجيه التى تربط مابين الزراعه و الصناعه من جهه و السوق العالميه فى الغرب من جهه. وبهذا الشكل أصبح اقتصاد مصر مرتبط بالاقتصاد العالمى الرأسمالى وليس أحادياً

النهضة التعليمية فى عهد محمد على

التعليم في مصر قبل عهد محمد علي

عظم شأن التعليم والثقافة في العهد المملوكي، فغدت القاهرة مهبط العلماء والأدباء، وخلفت القاهرة مدينة بغداد في ميدان العلوم والمعرفة والفنون. ولما غزا العثمانيون مصر، تحولت القاهرة إلى مدينة ثانوية قليلة الشأن، وأخذت العلوم في الانحطاط وأفل نجم الثقافة والتعليم، وعم الجهل والتخلف. فلم يكن العثمانيون أصحاب أي ماضٍ في العلم أو الثقافة لينقلونها إلى البلاد التي وقعت تحت سيطرتهم، إضافة إلى أنهم كانوا يجهلون اللغة العربية على الرغم من أنهم يدينون بالدين الإسلامي، فكانت اللغة التركية هي اللغة الرسمية في عهدهم الطويل؛ لذا انحط شأن اللغة العربية، وندر نبوغ العلماء والأدباء والمفكرين، فكان أكثر ما كتب في هذا العصر إنما هو من قبيل الشروح والحواشي علي المصنفات القديمة – واقتصر التعليم في عهد العثمانيين على الأزهر والكتاتيب، واندثرت المدارس التي أنشأت في عصر المماليك.

كان التعليم الأزهري قاصراً على العلوم الشرعية وبعض الحساب اللازم لضبط أحكام المواريث. أما العلوم العملية فلم يكن لها أدنى نصيب في التعليم الأزهري. كذلك اندثرت دور الكتب التي كانت تزخر بها القاهرة في عهد المماليك ولم يتبقى منها إلا مكتبة الجامع الأزهر.

بلغ انحطاط العلم والتعليم في مصر في أواخر الحكم العثماني أدنى مستوياته حتى تولى محمد علي باشا حكم مصر عام 1805 م. فقام بانشاء المدارس ونظم التعليم وأتى بالمعلمين من أوروبا وأرسل البعثات التعليمية إلى الخارج، وأحدث نهضة علمية كبيرة تخدم طموحاته في بناء مصر الحديثة.

النهضة التعليمية في عصر محمد علي

تطلع محمد علي إلى بناء دولة قوية في مصر والشام والحجاز، ولم يكن من سبيل لتحقيق ذلك إلا بالعلم الذي هو أساس كل نهضة، فقام بوضع نظام تعليمي حديث يضمن تنشئة جيل من أبناء البلاد قادر على تحمل المسؤولية في عملية الإصلاح والنهوض بالبلاد، مع الإبقاء على الأزهر الشريف بتراثه العلمي والديني والانتفاع ببعض النابهين من طلابه مع طلاب المدارس النظامية، وإرسال بعض هؤلاء في بعثات علمية إلى أوروبا. قامت سياسة محمد علي التعليمية على المحاور الآتية:

- إقامة المدارس وفقاً للنظم الحديثة، وإنشاء ديوان خاص بها

- **نقل المعارف والعلوم الاوربية إلى مصر. وتم ذلك عن طريق:**
- **استقدام المدرسين الأجانب إلى مصر.**
- **إرسال البعثات العلمية إلى أوروبا.**
- **الترجمة عن اللغات الأوربية**
- **النهوض بالطباعة باعتبارها أهم وسيلة لنقل الحضارة والثقافة الأوربية:**

أولاً: إقامة المدارس وإنشاء ديوان خاص بها. شملت المدارس التي أنشاها محمد علي كل مراحل التعليم من المرحلة الأولية والثانوية والتعليم الخاص. وكان التلاميذ يساقون قسراً إلى المدارس بعد إجبار أولياء أمورهم على إرسالهم ولو أدى الأمر إلى انتزاعهم بالقوة؛ هذا على الرغم من المغريات التي بذلتها الدولة لترغيب الأهالي في تعليم أولادهم، فكانت المدارس تتولى إيواء التلاميذ وإطعامهم وتقدم لهم الملابس والرواتب الشهرية.

بلغ عدد المدارس الابتدائية التي انشأها محمد علي 66 مدرسة منها 40 بالوجه البحري وعدد 26 مدرسة في الوجه القبلي. كما أنشأ مدرستين تجهيزيتين أحدهما في القاهرة والأخرى في الإسكندرية. أما المدارس التخصصية أو العالية، فشملت مدارس للطب والهندسة والطب البيطري والزراعة واللغات، ومدارس حربية للطوبجية والخيالة والبيادة

. هذا إلى جانب مدارس للموسيقا والفنون والصناعات. كان بالقطر المصري نحو 10000 (عشرة آلاف) تلميذ ينتظمون في هذه المدارس ... ومن أهم المدارس العالية التي أنشأها محمد علي

- مدرسة الطب: أنشأها محمد علي بناء على مشورة من الطبيب الفرنسي كلوت بك، الذي استقدمه محمد علي ليكون طبيباً ورئيساً لجراحي الجيش المصري فأشار على محمد علي بإنشاء مدرسة للطب يلتحق بها الطلبة المصريون، فتم إنشاؤها في عام 1827م في أبي زعبل. كما أنشأت مدرسة ملحقة بها لتعليم اللغة الفرنسية، حيث كانت هيئة التدريس في مدرسة الطب تتكون من أساتذة فرنسيين وقلة من الإيطاليين. وبعد مضي خمس سنوات على إنشاء هذه المدرسة، وقع الاختيار على اثني عشر طالباً من أوائل الخريجين ليكونوا أول بعثة لدراسة الطب في فرنسا عام 1832م. وعندما عاد هؤلاء الطلبة كلفتهم إدارة المدرسة بترجمة بعض أمهات كتب الطب إلى جانب اشتغالهم كمعيدين ومساعدين للاساتذة الأجانب.
- مدرسة الطب البيطري: بدأت في رشيد عام 1828م، ثم الحقت بعد سنتين بمدرسة الطب البشري في إبي زعبل، وكان مديرها فرنسياً. ولما نقلت مدرسة الطب البشري إلى قصر العيني في عام 1837م انتقلت مدرسة الطب البيطري إلى شبرا.

- المدارس الفنية: وتشمل المدارس الزراعية والهندسية. أما المدارس الزراعية، فكان أهمها مدرسة الزراعة بشبرا الخيمة، التي بدأت الدراسة بها عام 1833م والمدرسة الزراعية بنبروه التي انشأت عام 1836م. وكانت هيئة التدريس في هذه المدارس من أعضاء البعثة الزراعية الذين عادوا من أوروبا ومنهم يوسف افندي الذي تولى إدارة مدرسة نبروه الزراعية. أما المدارس الهندسية فقد عني بها محمد علي عناية خاصة نظراً لاحتياج البلاد إلى مهندسين لمسح الأرض وحفر الترع وإنشاء القناطر والجسور وتشييد المصانع ودراسة طبقات الأرض للبحث عن المعادن. وخدمة الجيش ببناء الثكنات والطوابي والاستحكامات. وكانت آخر مدرسة للهندسة أنشئت في عهد محمد علي هي مدرسة بولاق عام 1834م، التي نظمت على نسق مدرسة الهندسة بباريس، ثم انضمت إليها مدرسة المهندسين بالقناطر الخيرية ومدرسة المعادن بمصر القديمة.

- المدارس الصناعية: وكان أهمها: أ- مدرسة العمليات، أو الفنون والصنائع التي أنشئت عام 1837م بهدف تخريج الصناع المهرة ب- مدرسة الكيمياء، التي أنشئت في مصر القديمة لدراسة الصناعات الكيميائية ج- مدرسة المعادن، التي أنشئت في عام 1834م لدراسة كل ما يتعلق بالصناعات المعدنية.

- مدرسة الألسن: أمر محمد علي بإنشائها عام 1835م باسم مدرسة الترجمة، ثم تغير اسمها إلى " مدرسة الألسن ". ويرجع الفضل في إنشائها إلى اقتراح من رفاعة الطهطاوي الذي تولى إدارة المدرسة واختار للدراسة فيها ثمانين طالباً، وعني فيها بتدريس اللغتين العربية والفرنسية، تليهما اللغة التركية والإنجليزية.

إنشاء ديوان المدارس

كان تنظيم المدارس تابعاً لديوان الجهادية، في بداية عهد إنشائها، فكانت الجهادية تتولى أمر المدارس والاشراف عليها حتى أمر محمد علي بتأليف مجلس عام للنظر في تنظيم المدارس عام 1836م برئاسة أحد رؤساء البعثات العلمية إلى فرنسا، وهو مصطفى مختار الذي تخصص في دراسة الفنون الحربية وعلى يديه ولدت أول وزارة للمعارف في مصر والعالم العربي. وضم المجلس في عضويته عدد من اكابر المصريين ونظار المدارس العليا ونتج عن مناقشات المجلس توصيات وضعت موضع التنفيذ حيث اشار المجلس بتقسيم التعليم إلى ثلاث مراحل: هى الابتدائية والتجهيزية والخصوصية، واشار المجلس بتوزيع المدارس على الاقاليم حسب عدد السكان، مع انشاء مدرستين تجهيزيتين في القاهرة والإسكندرية.

ولما كانت المدارس بعد انشائها تحتاج إلى هيئة فنية للاشراف عليها وكانت هذه الناحية غير متوفرة في ديوان الجهادية، فقد صدر قرار محمد علي بانشاء ما يعرف باسم " شورى المدارس " أو مجلس المدارس لمتابعة الشؤن الفنية للمدارس غير انها ظلت من الناحية الادارية تابعة لديوان الجهادية .

وفي فبراير من عام 1837م أصدر محمد علي قرارا بانشاء ديوان المدارس واسند رئاسته إلى مصطفى بك مختار. وبذلك انفصلت تبعية المدارس في مصر عن ديوان الجهادية وحددت اللائحة الصادرة لهذا القرار اختصاصات ديوان المدارس بادارة المدارس والكتب خانات (دور الكتب) – والمعامل والمتاحف وقناطر الدلتا ومطبعة بولاق وجريدة الوقائع المصرية. وبعد وفاة مصطفى مختار الذي يعتبر أول وزير للمعارف المصرية عام 1839م ،تولى رئاسة ديوان المدارس إبراهيم ادهم باشا. ثانيا: نقل المعارف والعلوم الاوربية إلى مصر. كانت الحضارة الاوربية على عصر محمد علي قد بلغت درجة رفيعة من الرقي والتقدم فاتجهت انظار محمد علي إلى أوروبا للاقتباس من حضارتها لبناء دولته الحديثة. وقد اعتمد في ذلك على ما يلي:

استقدام المدرسين الأجانب

كانت فكرة محمد علي الاساسية في ذلك هى ان يعهد للاجانب الذين يثق في علمهم بتعليم طلبة المدارس التي انشأها حتى إذا أتم هؤلاء تعليمهم خلفوا اساتذتهم في مراكزهم. وفي هذا السياق استعان محمد علي بعدد من العلماء الاوربيين كان معظمهم من الفرنسيين وكان من ابرزهم " كلوت بك " الذي انشأ مدرسة الطب، ومسيو لامبير ناظر مدرسة الهندسة و هاملتون ناظر مدرسة الطب البيطري.

إرسال البعثات التعليمية إلى أوروبا

كانت أولى بعثات محمد علي إلى أوروبا في سنة 1809م إلى بعض المدن الإيطالية وتلتها بعثة ثانية في سنة 1813م إلى إيطاليا أيضاً لدراسة فن الطباعة وسبك الحروف وبعض الفنون العسكرية وبناء السفن. ثم تحولت البعثات العلمية إلى فرنسا حيث تأسس أول مكتب مصري للبعثات في باريس عام 1826م وتكونت البعثة من 44 عضو تحت إشراف العالم الفرنسي "جومار" ، وسافر مع هذه البعثة الشيخ رفاعة الطهطاوي كإمام لها ومرجعاً لشؤونها الدينية، وكان من إعضائها أيضاً مصطفى مختار الذي تولى ديوان المدارس فيما بعد؛ وقد زاد عدد أعضاء هذه البعثات حتى وصل إلى 144 عضو في العام 1833م.

أما التخصصات العلمية التي درستها هذه البعثات فشملت: العلوم العسكرية والهندسة والطب والجراحة، والميكانيكا، والكيمياء، والزراعة والتاريخ الطبيعي. ولما عاد أعضاء هذه البعثات إلى مصر كانوا دعامة المشروعات العظيمة التي فكر فيها محمد علي واستطاعوا القيام باعباء العملية التعليمية في مصر خلفا لبعض الأجانب الذين استعان بهم محمد علي في البداية. فقد تولى يوسف افندي بعد عودته من فرنسا إدارة مدرسة الزراعة العليا، وتولى مصطفى مختار رئاسة ديوان المدارس، كما تولى رفاعة الطهطاوي انشاء وإدارة مدرسة الالسن وغير هؤلاء كثيرون من أعضاء البعثات التعليمية الذين عادوا إلى مصر حاملين العلوم الأوروبية، فقد عمل الأطباء الاثني عشر – الذين عادوا من فرنسا بعد دراسة الطب– كمعيدين ومساعدين للأساتذة الأجانب. وفي عام 1837م أمكن الاستغناء عن المدرسين الأجانب في مدرسة الهندسة وحل مكانهم عدد من أعضاء البعثة الهندسية التي عادت من فرنسا.

حركة الترجمة

اهتم محمد علي بحركة الترجمة من اللغات الاجنبية في مختلف العلوم وكان حريصا على التاكد من كفاءة ومهارة أعضاء البعثات العلمية عند عودتهم إلى مصر حيث كان يأمر كل واحد منهم بترجمة كتاب في العلم أو الفن الذي تخصص في دراسته وفي عهد محمد علي نهضت اللغة العربية بعد ان اصبحت لغة الكتب والتدريس في مختلف العلوم،

واخرجت المطبعة الاميرية ببولاق عدد كبير من الكتب العربية المؤلفة والمترجمة في مختلف العلوم والفنون كالطب والرياضيات والعلوم الإنسانية والجولوجيا والعلوم الحربية وغيرها. ذلك أن خطط محمد علي الاصلاحية والعسكرية كانت تتطلب كتبا مترجمة عن اللغات الاجنبية تساير التقدم العلمي الحديث كما حرص محمد علي على شراء الكتب العلمية التي يشير بها كبار موظفيه من أوروبا ويأمر بترجمتها إلى العربية خاصة إذا كانت تختص بالعلوم العسكرية اوالهندسية اوالطبية – وفي مدرسة الطب قامت هيئة من المترجمين بترجمة الكتب الطبية إلى العربية وكان أول كتاب طبي مترجم في هذه المدرسة هو كتاب (القول الصريح في علم التشريح) وكان يراجع ترجمة الكتب الطبية عددمن المحررين، ويصحح لغتها ومصطلحاتها طائفة من شيوخ الأزهر.

كما شارك الطلبة المصرين بعد عودتهم من البعثات العلمية في ترجمة امهات الكتب الطبية وكذلك كان الحال في مدرسة الزراعة، حيث قامت هيئة التدريس من أعضاء البعثات العلنية بترجمة الكتب الخاصة بعلوم النبات من الفرنسية إلى العربية. وكذلك الحال في مدرسة الهندسة، – وفي عام **1835** م أمر محمد علي بإنشاء مدرسة الترجمة التي تغير اسمها إلى مدرسة الأل سن التي أنشئت بهدف إعداد مترجمين في مختلف العلوم والفنون، وإعداد مدرسين لتدريس اللغة الفرنسية في المدارس وقد بلغت اعداد الكتب التي ترجمت على يد خريجي مدرسة الالسن حوالي **2000** كتاب.

الطباعة والنشر

بدأ محمد علي التفكير بإنشاء المطبعة في بدايات عهده عندما أرسل بعثة علمية إلى إيطاليا للتخصص في فن الطباعة، وبعد خمس سنوات تقريباً تم إنشاء مطبعة بولاق التي بدأت تخرج كتبها المطبوعة سنة 1822م. كما انشأ محمد علي مصنع للورق في بولاق. وكانت هذه المطبعة من أهم الوسائل التي استخدمت في نقل العلوم والفنون الاوربية إلى مصر. – وكانت الكتب المطبوعة توزع علي طلاب المد ارس والمعاهد العلمية وعلى الجند والضباط في فرق الجيش، كما أمكن لمن أراد من أفراد الشعب أن يقتني منها ما يشاء. ولم تقتصر الطباعة على المطبعة الكبرى في بولاق، بل أنشئت مطابع صغيرة أخرى ملحقة بالمنشأت التعليمية البعيدة عن بولاق، ليتيسر لها طبع الكتب التي تترجم بها كما الحقت ببعض الدواوين مطابع خاصة بها وقد كان الغرض الأساسي من إنشاء هذه المطابع هو طبع الكتب المترجمة، ولكنها قامت أيضاً بإعادة طبع العديد من المخطوطات القديمة.

النهضة الصناعية المصرية

فى عهد محمد على

كان السبب الرئيسي الذي دفع محمد علي نحو سياسة التصنيع، سد حاجة الجيش من المؤونة والذخيرة اللازمة له، خاصةً بعد النصر الذي تحقق على حملة فريزر 1807، ثم تجهيزه للحملة العسكرية على الحجاز واحتياجه الشديد لبناء سفن تنقل الجنود، والذخيرة، والمؤونة من مصر إلى الموانئ المختلفة، فقام بتأسيس ترسانة بولاق لهذا الغرض 1809.

ورغم أن هذا الاهتمام كان موجها في المقام الأول للصناعات الحربية، غير أنه لم يهمل الصناعات المدنية؛ لإن إنشاء هذه الصناعات أمر لازم بوصفه مكملاً للصناعات الحربية، كما أنه يوفر في المبالغ الطائلة التي يتطلبها الاستيراد من الخارج ، ومع التوسع في زيادة الصادرات من المحاصيل الزراعية، تحتم إنشاء مصانع مجهزة تجهيزاً حديثًا؛ لتحضير الحاصلات المختلفة؛ نظرا لصعوبة الاعتماد على المحالج البدائية ومضارب الأرز القديمة، ويرجع تأسيس المصانع في مصر إلى عام 1816، أنفق محمد علي في تشييدها وحتى شروعها في الإنتاج حوالي 200.000 كيس – أى خمسة ملايين من الدولارات مقابل إحضار العمال من إنجلترا وفرنسا، وإيطاليا، هذا فضلاً عن شراء الآلات من جميع الأنواع

في بداية الأمر، قامت صناعة السكر على الطريقة البدائية لصنع العسل الأسود، إلى أن قام محمد علي في عام 1818 بإنشاء مصنع لصناعة السكر في بلدة ريرمون، على غرار المنشآت الموجودة في جزر الأنتيل بأمريكا، وتواجدت هذه الصناعة في الوجه البحري في بادئ الأمر، الأمر الذي جعل القصب ينقل من الصعيد ولمسافات طويلة؛ لذا تم إلغاء معاصر السكر في الوجه البحري، وقام محمد علي بإنشاء معملاً لصناعة السكر في بلدة ريرمون – مركز زراعة قصب السكر – وكان لتكرير السكرفي عام 1830وكان يشرف عليه مستر برام Mr. Brim وهو مهندس إنجليزي، وعندما تُوفي عهد محمد علي لإدارته إلى مسيو تونينا Signor Tonine الإيطالي، ثم قام معمل التكرير في بدايته بتكرير حوالي 30 قنطار أو يزيد في اليوم الواحد، وكان ينتج نوعين من السكر

مصانع الغزل والنسيج

مصنع الخرنفش

من أول المصانع التي انشاها محمد علي باشا فابريقة الغزل والنسيج بالخرنفش، انشئت سنة 1816، واستدعى لها عمالا فنيين من فلورانس بايطاليا، تخصصوا في غزل خيوط الحرير لصناعة القطيفة والساتان الخفيف،

وبعد قليل من الزمن نقلت الانوال الخاصة بصناعة الحرير إلى فاريقة اخرى، ووضعت بدلها مغازل للقطن وماكينات لصنع الاقمشة القطنية. فركب بها مائة دولاب، عشرة منها للغزل السميك وتسعون دولاب للغزل الرفيع اي بنسبة دولاب للخيوط السميكة إلى تسعة للخيوط الرفيعة وهي النسبة المتبعة عادة في معامل الغزل، وتحمل الدواليب الاولى 108 مغزلا على خط واحد، والتسعون الثانية 216 مغزلا، وفي الفابريقة سبعون ماكينة، وعدد يوازيها من العدد الاخر لتجهيز القطن قبل غزله.

وعدا دواليب الغزل ومغازله كان يوجد بالفابريقة قسم للنسيج به ثلثمائة نول تنسج من خيوط القطن اقمشة مختلفة انواعها كالبافتة والموسيلين والبصمة والشاش والباتست، والاقمشة التي تنسج في هذه الفابريقة كانت ترسل لتبييضها في المبيضة التي انشئت لهذه الغاية على شاطئ النيل بين بولاق وشبرا، ثم تعاد إلى مخازن الخرنفش لتباع لمن يطلبها، ويوجد بالفابريقة ورش للحدادين والسباكين والخراطين والنجارين لاصلاح الالات التي يصيبها العطب.

فابريقة مالطة ببولاق

وانشات الحكومة في بولاق فابريقة اخرى سميت فابريقة مالطة وسميت بهذا الاسم نسبة إلى العدد الكبير من العمال المالطيين الذين كانوا يشتغلون فيها، وعهد بادارتها إلى المسيو جومل، وقد اعدت لغزل القطن ثم نسجه اقمشة مختلفة الانواع، وكان فيها من دواليب الغزل 28 دولابا و24 عدة، وآلات تجهيز القطن،

وتدور هذه الالات كما في فابريقة الخرنفش بواسطة اربعة عشر طنبورا تحركها هدة يجرها ثمانية من الثيران، وكل دولاب يشتغل عليه رجل وثلاثة أطفال يعقدون الخيوط التي تقطعها حركة العدة، ويبلغ عدد الانوال في فابريقة مالطة 200 نول تنسج خيوط القطن ويصنع منها البافتة والبصمة والباتست والموسلين.

وفيها ورشة تحتوي عمالا من سائر الحرف معدين لاصلاح ألاتها واصلاح آلات مصانع الوجهين البحري والقبلي، وفيها ورشة للنجارة يشتغل فيها صناع فرنسيون واروام يصنعون نماذج واشياء اخرى دقيقة الصنع، وفيها ايضا ورشتان للخراطة بكل منها آلة ضخمة تحركها ثمانية من الثيران، واحدى هاتين الورشتين اذا تحركت دواليبها تتحرك لها صواني واقلام من الفولاذ للتضليع والتخريم والتثقيب ومحافر ومناشر لنشر الخشب والنحاس، ومخارط عديدة، وفي الورشة الاخرى مخرطة كبيرة ومرازب ومطرقة ومنفاخان كبيران.

وكان بالقرب من فابريقة مالطة ثمانون ورشة حدادة لصنع مراسي المراكب وكل ما يلزم لبناء السفن وما يستهلك من الحديد والفحم في هذه الورش عظيم جدا، ويلحق بالفابريقة معمل لسبك الحديد، وقد لاحظ عليه المسيو مانجان بعض العيوب فقال ان افرانه ليست محكمة الوضع

وتستهلك من الوقود أكثر مما يلزم، والرمل المستعمل لم يكن مدقوقا دقا جيدا، وفي غالب الاحيان كان يفسد العمل لاهمال ا لعمال ولكونهم لا يدعون القوالب تجف الجفاف المطلوب، وفي هذا المسبك ثمانية افران كانت تعمل باستمرار، وعمالها مصريون يعملون تحت إدارة رؤساء من السوريين.

فابريقتا إبراهيم اغا والسبتية

وكان بالقرب من فابريقة مالطة مصنعان آخران لغزل القطن يعرف احدهما بفابريقة ابراهيم اغا، والاخر بفابريقة السبتية ، وفيهما تسعون دولابا لغزل القطن وستون ماكينة لتجهيز القطن للمغازل، ولم يكن في هاتين الفابريقتين سوى ورش الغزل وليس فيها ورش للصنائع الاخرى كما في فابريقة مالطة، وهذه الفابريقة تمدها بكل ما يلزم لاصلاح عددها وآلاتها وتستورد القطن الذي تغزله من مستودع الحكومة للاقطان كما تفعل الفبريقات الاخرى واجور العمال فيها تساوي اجورهم في تلك الفابريقات.

مصنع المبيضة

وقد انشئ فيما بين بولاق وشبرا على شاطئ النيل مبان ومنازل خلوية وحظيرة واسعة اطلق علي ذلك كله اسم المبيضة، وفيها كانت تبيض الاقمشة التي تصنع في الفابريقات بالاساليب الصناعية الحديثة،

وتطبع فيها ثياب البصمة (الشيت) بواسطة الالواح او الاسطوانات، وتطبع في الشهر نحو الثمانمائة مقطع من البصمة، ويقول المسيو مانجان الذي نقلنا عنه هذه البيانات ان البصمة التي تصنع في مصر قد امتازت بجودتها واتقانها ودقة صنعها ومتانتها وجمال رسومها وتنوع اشكالها وثبات الوانها على الغسيل، فصار الجمهور يفضلها على انواع الشيت الواردة من المانيا وإنجلترا حتى قل الوارد منها، وانشئ ايضا في شبرا شهاب (بالقليوبية (وشبينوالمحلة الكبرى والمنصورة مبيضات اخرى، والاثواب المعدة للبيع تلمع في هذه المبيضات ثم تطوى، وتطبع المبيضات المناديل التي تزين بها النساء رءوسهن ويستعمل لهذا الغرض أربعمائة ثوب من الموسلين في الشهر.

مصنع نسيج البركال

وبالقرب من المبيضة بولاق انشئ بناء جميل تم في سنة 1833 لنسج البركال (نوع من الشيت الرفيع) ركب فيه 150 نول للنسيج، منها تسعة فقط تشتغل ، وهي تدار بواسطة ألة بخارية، وكل نول ينسج في الاسبوع اربعة اثواب من البركال، وطول الثوب اربعون ذراعا في عرض ذراع ونصف، وكان في هذا المصنع اربعة من الصناع الانجليز يتولون تعليم العمال المصريين صناعة هذا النسيج، والطابق العلوي لهذا المصنع خاص بالغزل.

مصنع امشاط الغزل بحي السيدة زينب

وانشئ في حي السيدة زينب معمل لصنع امشاط الغزل، يخرج في كل شهر ثلاثين مجموعة من الامشاط التي تستعمل للغزل ويدرب الصبيان على هذا النوع من العمل، وكان المصنع يورد لفابريقات الغزل الامشاط اللازمة ويتولى ايضا اصلاح ما يعطب فيها، وفي هذا المصنع قسم للنسيج به ثلثمائة نول وخمسمائة عامل ويخرج في الشهر 1200 ثوب تقريبا طول الثورب 32 ذراعات في عرض ذراعين، والعامل ينسج ثمانية اذرع في اليوم من ايام الصيف وستة في ايام الشتاء.

مصنع الجوخ في بولاق

وانشات الحكومة مصنعا للجوخ على شاطئ النيل في بولاق، وقد لقى في مبدا امره عقبات عديدة فانقضت عدة سنوات وهو لا يؤتي ثمرة، وكلف الخزانة اموالا طائلة، على ان ارادة محمد علي باشا لم تنثن امام هذه الصعاب ولم يتراجع عن عزمه في انجاح هذا المصنع لما كانت ينتظره من النفع في سد حاجات الجنود من جهة الملبس، ورای ان اساس النجاح هو في اختيار الخامات وفي مهارة العمال الذين يعهد اليهم بالعمل، فامر وكلاءه في مرسيليا ان ينتخبوا له رؤساء ماهرين للعمل، تتوافر لديهم من الكفاءة أكثر ممن سبقوهم ليعهد اليهم تدريب العمال والتلاميذ على اتقان العمل،

كل فيما يخصه، فاختار خمسة فرنسيين من رؤساء العمل في مصنع الجوخ بلا جندوك قضوا اربع سنوات في تخريج التلاميذ في مصنع بولاق وتعليمهم اسرار الصناعة وإدارة الالات الحديثة، وبذلك تكون في مصنع بولاق طائفة من الغزالين والنساجين والكباسين والقصاصين والصباغين والعصارين.

ولم يكتف محمد علي باشا بذلك بل انفذ إلى فرنسا طائفة من المصريين الاذكياء والحقهم بالبعثة العلمية وتعلموا هذه الحرف المتنوعة في معامل ريمسن والبيف حيث ارسلهم اليها مدير البعثة المصرية اتباعا لاوامر محمد علي، وكان في المعمل مائة نول لنسيج الجوخ تدور بعدتين يحرك كلا منهما ثمانية ثيران وتحرك العدتان تسع عجلات، ويحتوي المعمل على كثير من العدد، وآلات الكبس والعصر وغيرها من الجهازات والاسطوانات، وفي مصبغة المصنع ست خوابي (قزانات) منها واحدة من القصدير، والالوان التي تستعمل لصبغ الجوخ هي الازرق الداكن، والازرق السماوي، والاحمر والبني ، والاخضر الداكن.

وكان الجوخ ينسج ايضا في دمنهور وفي بعض المصانع الاخرى بالقاهرة، يستعمل في نسجه الصوف الردئ ويعمل منه الكبابيت ويرسل ما يصنع منها إلى مصنع بولاق لدهنه وصبغه وكبسه، ويبلغ ما تخرجه هذه المصانع في الشهر نحو عشرين الف ذراع تقريبا ترسل إلى الاسكندرية، وتستهلك في ملابس بحارة الاسطول وقد امتاز الجوخ الذي يصنع في مصنع بولاق بالجودة وكان من خير الملابس للجنود والضباط.

مصنع الحرير

كان ينسج في مصر من الاقمشة الحريرية قبل عصر محمد علي باشا القطني والالاجة وبعض انواع الحرير والقطن، ولكن محمد علي أكثر من غرس الاشجار التوت ليكثر من انتاج الحرير. واحضر من الاستانة عمالا متخصصين في الحرير لنسجه وصنع الاقمشة الحريرية منه على اختلاف انواعها كما ينسج في الاستانة وفي الهند، وانشا لهذا الغرض مصنعا للحرير في الخرنفش وتولى اولئك العمال الاخصائيون تدريب العمال المصريين على اتقان نسيج الحرير فلقى المصنع نجاحا وصار به مائتا نول لنسيج الحرير الخام الوارد من الشام او من تربية دود القز في مصر، ولنسج الاسلاك الذهبية المعروفة بالمقصب،

وقد بلغت زنة الحرير الذي نسج في مصر سنة **1833** اربعة الاف اقة، وعمال هذه الصناعة يشتغلون بالمقطوعية، وكانوا في غاية من الحذق، ولهم ذوق في تحليته بالالوان والرسوم الجميلة، ولكن منسوجاتهم من الحرير لم تصل إلى مرتبة المنسوجات الايطالية في ثبات الالوان.

مصنع الحبال

وانشات الحكومة في القاهرة مصنعا للحبال، ترسل مصنوعاته إلى الاسكندرية لاستخدامها في ترسانة الثغر وفي السفن الحربية والتجارية، وتصنع الحبال في هذا المصنع من القنب.

نسيج الصوف

وصنعت في القاهرة منسوجات الصوف وكانت تعمل منها ملابس البحارة المصريين واغطية النوم (البطانيات) ويستعمل لهذا الغرض الصوف السميك الوارد من الوجه القبلي وبلغت انوال نسيج الصوف الموجود منها من قبل وما انشئ في ذلك العصر **4000** نول.

فابريقة الطرابيش في فوه

كانت فابريقة الطرابيش التي انشاها محمد علي في فوه من أهم وانفع المصانع التي اسسها سواء في نظامها او في قلة نفقاتها او في جودة مصنوعاتها، وأول مدير لها تاجر مغربي استدعى لها الصناع من تونس المشهورة بصناعة الطرابيش

، وقد تدرب العمال المصريون على يد اولئك الصناع فصاروا معلمين بعد ان كانوا تلاميذ، واتقنوا طريقة تحضير الصوف ونسجه طرابيش وكسبها وصبغها، ويستورد الصوف المستعمل في هذه الصناعة من اليكانت وثمن الاقة منه **25** قرش، ومن الصنف الجيد الرفيع **30** قرش، ولا يغسل هذا الصوف قبل نسجه لنظافته ونصوع بياضه.

وكان يصنع كل طربوش من خيط واحد لا من خيوط متعددة، وبغير ذلك لا يمكن كبسه جيدا، وعندما توضع الطرابيش في المكبس تترك به ثلاثة أيام بلياليها مع صب الماء المغلي عليها باستمرار، ثم يصب عليها مخلوط الصابون الذي يصنع في الفابريقة نفسها، ثم تمر على الماء البارد لتنظيفها. وكانت الطرابيش تصبغ بالقرمز والعفص والطرطير والشبة.

وتصنع فابريقة فوه كل يوم ستين دستة (**720** طربوشا) مختلفة انواعها واثمانها، وتصنع الطرابيش الرديئة من الصوف ا لمخلوط، ويستورد الجيش المصري من مصنع فوه ما يطلبه من الطرابيش للجنود، واذا ما استكمل الجيش حاجته منها يباع ما زاد إلى التجار من الاهلين

مصانع الغزل والنسيج في الوجه البحري

مصانع قليوب

انشئت في الوجه البحري عدة مصانع لغزل القطن ونسجه، وأول هذه المصانع مصنع قليوب، وكان واسعا مستوفي العدد والالات تصنع في الدواليب والامشاط ويشتغل فيه عدد كبير من العمال وبه عدة عمال من الافرنج يراسون بعض الاقسام، وبه سبعون دولابا، وثلاثون محلاجا (مشطا) تحركها ثلاث عدد، ويغزل القطن في هذا المصنع من نوع الغزل الذي تصنعه فابريقات القاهرة، وبقليوب مسبك للحديد ولكنه كان غير منتظم وبه عيوب عديدة.

شبين الكوم

وفي شبين الكوم مصنع اخر لغزل القطن به سبعون دولابا وثلاثون محلاجا (مشطا) يحركها عدتان وترسل مصنوعاته من الغزل إلى القاهرة.

المحلة الكبرى

وانشئ في المحلة الكبرى مصنع كبير لغزل القطن به مائة وعشرون دولابا وستون محلاجا يحركها ثلاث عدد تدور كل عدة بواسطة ثمانية من الثيران، وبه مائتا نول تنسج عليها الاقمشة من الخيوط التي تغزل فيه، ويحتوي هذا المصنع على مسبك وورش للحدادة والبرادة والخراطة تصنع فيه دواليب الغول وامشاطه وغيرها من الالات التي ترسل للمصانع الاخرى.

زفتى وميت غمر

وانشئت في زفتى فابريقة لغزل القطن بها 75 دولابا و50 محلاجا بملحقاتها تحركها ثلاث عدد ويستورد هذا المغزل من مصنع المحلة ما يلزمه من المهمات والخامات، وفي ميت غمر مغزل يشبه مغزل زفتى في عدد دواليبه ومحالجه.

المنصورة

وانشئت في المنصورة فابريقة للغزل والنسيج ولها مخزن يلحق بها ،وبها اربعة عدد تحرك 120 دولابا وثمانين محلاجا، والخيوط التي تغزلها هذه الدواليب والمحالج تنسج في الفابريقة على 160 نولا، وفي هذه الفابريقة مسبك للحديد ومصنع للحدادة والبرادة والخراطة.

دمياط

وكان في دمياط قبل عصر محمد علي مغزل صغير، فانشئت فيها فابريقة للغزل والنسيج على مثال فابريقة المنصورة.

دمنهور

وانشئ في دمنهور مصنع للغزل به 100 دولاب وثمانون محلاجا، وفابريقة اخرى لغزل الصوف ونسجه تصنع فيها الكبابيت واغطية النوم (البطانيات) اللازمة لجنود البر والبحر، وترسل مصنوعاتها إلى مصنع الجوخ في القاهرة ببولاق حيث تضغط وتلون وتكبس.

فوه

وفي فوه مصنع لغزل القطن فيه 75 دولابا للغزل واربعون مشطا تحركها عدتان تدير كل واحدة منها ثمانية من الثيران.

رشيدوفي رشيد مصنع للغزل به 150 دولابا للغزل و80 محلاجا يحركها اربع عدد وتنسج فيه قلوع المراكب، وبها مصانع للحدادة لعمل الحدايد اللازمة للسفن، وقد انشا بها المستر توماس جالويه وهو ميكانيكي إنجليزي آلة بخارية لتدير طواحين تبييض الارز.

مصانع الغزل في الوجه القبلي

بني سويف

وانشئت عدة مصانع لغزل القطن في الوجه القبلي، ففي بني سويف مصنع كبير به 120 دولابا وثمانون محلاجا تحركها ثلاث عدد.

أسيوط

وفي اسيوط مصنع للغزل به من العدد والالات مثل ما في مصنع بني سويف، والقطن المغزول في هذين المصنعين يرسل إلى القاهرة لنسجه في فابريقاتها وبيعه.

بقية المصانع

واسس محمد علي عدا المصنعين السابقين مصانع لغزل القطن في المنيا وفرشوط وطهطا وجرجا وقنا، فكانت تشتغل ولكن في حالة غير مرضية، ولم ترسل إلى الحكومة شيئا من مصنوعاتها.

نظرة عامة في مصانع الغزل والنسيج

كان بمصانع غزل الطقن كافة 1459 دولابا للغزل منها 145 دولاب للغزل السميك و1214 للغزل الدقيق، وتصنع الاولى 14500 رطل من الخيوط كل يوم من ايام الصيف و1015 رطلا في ايام الشتاء، وتصنع الثانية (دواليب الغزل الدقيق) 12140 رطلا في كل يوم من ايام الصيف و8540 رطلا في ايام الشتاء.

وكان يصدر جزء من القطن للغزول إلى ثغور البحر الادرياتي وثغور التوسكان (ايطاليا) ومن هناك يرسل إلى داخل إيطاليا وألمانيا، اما باقي القطن المغزول فانه ينسج اقمشة في مصر فتباع الاقمشة المنسوجة في المدن والقرى بالقطر المصري، ويصدر بعضها إلى سوريا والاناضول وجزر بحر الارخبيل، قال المسيو مانجان: وكان يمكن ان تزاد مصنوعات الفابريقات بمقدار الخمس اذا ضاعفت رؤساء العمل رقابتهم على العمال واذا دفعت اجور هؤلاء بانتظام.

وقد راجت الاقمشة التي صنعتها الفابريقات المصرية في الاسواق رواجا اضر بالواردات الاجنبية التي من نوعها وخاصة المصنوعات الرخيصة كالبصمة (الشيت) فان ارداتها قلت عن ذي قبل، والبفتة الهندية بعد ان كانت تغمر الاسواق المصرية انقطع الوارد منها لما حلت محلها البفتة المصرية، وكذلك حصل لاقمشة البنغال.

ولكن العيب الجوهري في مصانع الغزل والنسيج التي انشاها محمد علي انها كانت قائمة على نظام الاحتكار، وهذا النظام لا يتفق والتقدم الصناعي، وقد انتقده المسيو مانجان الذي عاينه وخبره فقال في صدده ان الصناعة الحرة هي التي توافق مصلحة الاهلين ومصلحة الحكومة معا، وكان من الاوفق ترك الصناعة حرة في يد الاهلين ما عدا بعض مصانع غزل القطن التي يمكن الحكومة ان تربح من بقائها ، وقال ان كثيرا من الايدي العاملة التي تستخدمها الحكومة في معاملها كانت تعود على البلاد بفائدة أكبر لو اشتغلت في الزراعة.

والواقع ان معظم المصانع التي انشاها محمد علي قد اقفلت في اواخر عهده واقفل باقيها في عهد عباس باشا الأول، وسبب اضمحلالها ان ادارتها كانت في يد موظفي الحكومة، فانعدمت فيها الإدارة الحرة التي هي مناط ارتقاء المشروعات الصناعية والاقتصادية ، ولم يكن الموظفون امناء ولا اكفاء لادارتها ولا غيورون على عملهم، وكانت الحكومة تستورد الفحم والالات من أوروبا وتنفق على إدارة المصانع النفقات الطائلة، فكانت النتيجة ان ايراداتها قلت على مر السنين عن مصروفاتها وتسبب عنها خسارة على خزانة الحكومة، كما ان انقاص الجيش والبحرية في اواخر عهد محمد علي قد عطل المصانع التي تصنع حاجات الجيش لعدم الحاجة إلى مصنوعاتها.

ولكن مما لا نزاع فيه ان انشاء مصانع الغزل والنسيج كان اساسا لنهضة صناعية كبيرة وتجربة جليلة يمكن الاستفادة منها لاقامة النهضة الصناعية على قواعد صحيحة.

مصانع نسيج الكتان

كانت الاقمشة الكتانية تصنع في مصر قبل عصر محمد علي، ومصانعها موزعة في مختلف المديريات، وقد بلغت ما تنتجه في ذلك العصر كل سنة ثلاثة ملايين مقطع يستهلك اكثرها في مصر، ويصدر قسم منها إلى تريستا وليفورن وكان في مصر ثلاثون الف نول لنسيج اقمشة الكتان.

الصناعات المعدنية

معمل سبك الحديد

اقيم في بولاق مسبك للحديد، وهو بناء مشيد تشييدا فما وله منظر رائع، وكان يؤدي اعظم الخدمات، وقد تكلف البناء وحده نحو ستين الفا من الجنيهات، وضع تصميمه المستر جالويه المهندس الميكانيكي الإنجليزي الذي كان يشتغل في خدمة الحكومة، وجعله على نموذج مسابك لندره، وكان يتولى رئاسة العمل فيه رئيس إنجليزي يعاونه خمسة من العمال الانجليز وثلاثة من المالطيين واربعون تلميذا مصريا موزعين على جميع اقسام المسابك، ورئيسه القائد ادهم بك الذي تكلمنا عنه انفا.

وكان يصب في هذا المسبك كل يوم خمسون قنطارا من الحديد المعد لصابورة السفن والالات اللازمة للمعامل والفابريقات.

مصانع الواح النحاس

وانشات الحكومة مصنعا لعمل الواح النحاس التي كانت تبطن بها السفن، وتولى ادارته المستر جالويه الميكانيكي الإنجليزي يعاونه اربعة رؤساء عمل، اثنان للاسطوانة، وثالث لمراقبة الآلة البخارية، والرابع للسبك وتنقية النحاس من المواد الترابية.

وكان في المصنع عشرون عاملا مصريا من العمال الفنيين موزعين على الاعمال المختلفة، منهم واحد للسبك، وثلاثة للاسطوانة ، يشتغلون في اخراج الواح النحاس، وعملية السبك الواحدة تقتضي 35 قنطارا من النحاس، والاسطوانت تخرج كل يوم من سبعين إلى مائة لوح، من النحاس مختلفة المقاس والسمك.

صناعة السكر

معامل السكر في الوجه القبلي

اسست الحكومة سنة 1818 معملا للسكر في الريمرمون على مثال مصانع السكر في جزائر الانتيل بامريكا، تولى ادارته في أول امره إنجليزي ثم خلفه صاحب مصنع في جزيرة كوريسكا ، وقد اشتهر هذا المعمل بحسن الإدارة والنظام والاقتصاد، فاتسعت اعماله وتقدمت حاصلاته وانتشرت مقطوعيته في البلاد،

ولكن استيراد السكر المكرر من معامل أوروبا منذ سنة 1826 اضر بانتاج معمل الريمرون وفضل الناس السكر الوارد من أوروبا لجودته ورخص اسعاره. وبلغ انتاج معمل الريرمون سنة 1833 حوالي 12195 قنطارا من السكر الخام وانشات الحكومة معملين اخرين للسكر احدمها في ساقية موسى والثاني في الروض (مركز ملوي)، وقد كرر من السكر الخام في المعمل الأول 5200 قنطارا، واستخرج الروم من مصنع الريرمون واستعمل لهذا الغرض 4800 قنطارا من العسل.

صناعة الأصباغ

مصانع النيلة

وانشئت مصانع النيلة في شبرا شهاب، والعزازنة وميت غمر،

والمنصورة، ومنوف، وابيار، والاشمونيين، وبركة السبع، والمحلة الكبرى، والجيزة، وابو تيج، وملوي، ومنفلوط، وطهطا، واسيوط، والفشن، وهذه المصانع تستنفد سدس محصول القطر المصري، وكانت النيلة ترسل من المصانع إلى القاهرة حيث تبيعها الحكومة وتصدر منها للخارج بعد استنفاد حاجة المستهلكين.

العمران

وقد عنى محمد علي بعمران المدن بما استحدثه فيها من المباني العامة كالقصور والمصانع ودور الحكومة وما اليها، فمن ذلك انه انشا بالقلعة قصره الشهير (قصر الجوهرة) الذي كان مقر الحكم في عهده، وقصر شبرا، وسراي التي بالاسكندرية، وهي اعظم قصوره وافخمها، وابتنى القصور في بعض عواصم المديريات ليقيم بها اثناء تجواله بالاقاليم.

وانشا الدفترخانة بجوار القلعة لتحفظ بها وثائق الحكومة ودفاترها وسجلاتها، وهي من اجل منشاته ولا تزال قائمة تؤدي الغرض منها، وقد حفظت وثائق الحكومة طوال هذه السنين بعد ان كانت تبدد ويعفى اثرها قبل ذلك العهد.

واصلح قنطرة المجراة التي كانت تنقل المياه من النيل بمصر القديمة إلى القلعة، وفتح طريقا واسعا محفوفا بالاشجار بين مصر وشبرا، وهدم كثيرا من التلال والكيمان التي تحيط بالقاهرة او تتخللها وتثير الرياح ما بها من الاتربة والقاذورات وتهيلها على المدينة فتفسد الجو وتضر بصحة الناس وابصارهم.

واصلح بركة الازبكية واحتفر حولها قناة تنصرف اليها مياه البركة فظهرت ارضها وتحولت إلى بستان كبير، وهو البستان الذي انشئت في وسطه حديقة الازبكية الحالية على عهد إسماعيل.

وبنى جامعه الكبير بالقلعة واوصى ان يدفن فيه.

وانشا دارا للرصد (رصدخانة) في بولاق ولكن ادارتها لم تنتظم فاقفلت في اواخر عهده، واصدر امرا بفتح خروج الاثار القديمة من مصر وتاسيس دار للاثار في منزل الدفتردار، وعنى باستخراج الاحجار والرخام من المحاجر المصرية.

وعنى بعمران الاسكندرية التي تقدمت تقدما عظيما في عهده بفضل وصول ترعة المحمودية اليها وانشاء الترسانة والاسطول بها ولانها صارت ملتقى التجارة بين مصر والخارج وكان يطيل الاقامة بها كل سنة، وقد فتح شارعا كبيرا مرصوفا بالاحجار بين باب رشيد وسراي راس التين.

وانشا مدينة الزقازيق لمناسبة بناء قناطر بحر مويس، وعنى بشئون البلاد الصحية كما بيناه في الكلام عن كلوت بك وانشا المستشفيات والمحاجر الصحية على النظام الأوروبي

ورتب البريد يحمل برا على ايدي السعاة يقطعون المراحل على متون الجياد وبحرا على ظهر السفن.

وانشا خطوطا تلغرافية بان اقام ابنية مرتفعة على شكل ابراج ممتدة على خط واحد، واقام على كل بناء آلة التلغراف على طريقة شاب القديمة فكانت الانباء تنقل من مرحلة إلى اخرى إلى ان تصل إلى الجهة المقصودة، وتستغرق الرسالة التلغرافية بهذه الطريقة من الاسكندرية إلى مصر خمسة وثلاثين دقيقة اما التلغراف الحلاي فقد ادخله سعيد باشا.

تطوير الجيش فى عهد محمد على

تاريخ الجيش

إن الجيش هو الدعامة الأولى التى أشاد عليها محمد على كيان مصر المستقلة ، ولولاه لما تكونت الدولة المصرية ولا تحقق استقلالها ، وهو الذى كفل هذا الاستقلال وصانه نيفا وستين سنة، فلا غرو ان خصه محمد علي باعظم قسط من عنايته ومضاء عزيمته، وليس في منشات محمد علي ما نال عنايته مثل الجيش المصري، ويكفيك دليلا على مبلغ تلك العناية ان منشاته الاخرى متفرعة منه، والفكرة في تاسيسها او استحداثها انما هي استكمال حاجات الجيش، فهو الاصل وهي التبع.



فتقرير محمد علي باشا انشاء مدرسة الطب مثلا يرجع في الاصل الى تخريج الاطباء الذين يحتاج اليهم الجيش، وكذلك دور الصناعة ومصانع الغزل والنسيج، كان غرضه الاول منها توفير حاجات الجيش والجنود من السلاح والذخيرة والكساء، واقتضى اعداد الاماكن اللازمة لاقامة الجنود بناء الثكنات والمعسكرات والمستشفيات، واستلزم تخريج الضباط انشاء المدارس الحربية على اختلاف انواعها،

وكذلك المدارس الملكية كان الغرض الاول منها تثقيف التلاميذ لاعدادهم على الاخص لان يكونوا ضباطا ومهندسين، وارسال البعثات الى اوروبا كان الغرض الاول منه توفير العدد الكافي من الضباط ومن الاساتذة والعلماء والمهندسين ممن يتصلون عن بعد او قرب بالاداة الحربية، صحيح ان هذه المنشات وغيرها كان لها اغراض عمرانية اخرى، لكن خدمة الجيش كانت اول ما فكر فيه محمد علي.

فالجيش اذن فضلا عن مهمته الاول من الدفاع عن استقلال البلاد كان اداة لتقدم العمران في مصر، فهو من هذه الوجهة من اجل اعمال محمد علي باشا.

وكل ما بذل من الجهود والنفقات في سبيله قد اصاب حقه وموضعه، فلم يكن عبثا ولم يضع سدى، اذ من المحقق انه لولا قوة هذا الجيش لضاع الاستقلال الذي نالته مصر في عهده، ولاستردت تركياامتيازاتها القديمة في البلاد واتخذتها ولاية تحكمها مباشرة كما تحكم سائر ولايات السلطنة العثمانية، او لاحتلتها انجلترا بجيوشها عندما البت عليها الدول الاوروبية وجردت عليها قواتها البحرية والبرية في سورية وعلى السواحل المصرية ، ولو لم يكن هذا الجيش متاهبا للقتال ذائدا عن الوطن لاستطاعت انجلترا ان ترمي الكنانة بجنودها، ولاحتلتها كما فعلت سنة 1882، حين لم يكن ثمة جيش ولا دفاع، ولا معاقل لحماية الذمار.

مشروع تأسيس الجيش النظامي

اخذ محمد علي باشا يؤسس الجيش المصري النظامي منذ سنة **1820**، وكان الجيش قبل ذلك العهد اخلاطا من العناصر المفوطرة على التمرد والفوضى يطلق عليهم لفظة باشبوزق اي الجنود غير النظاميين، ومثل هذا الجيش لم يكن جديرا بالاعتماد عليه في رفع هيبة مصر والدفاع عن كيانها وتوسيع حدودها، لذلك ما فتئ محمد علي منذ تبوا عرش مصر يفكر في انشاء جيش على النظام الجديد.

ولكن الظروف لم تكن تواتيه ، فكان يؤجل انفاذ فكرته الى ان تحين الفرسة المناسبة، وقد لاقى صعوبات كبيرة في تحقيقها، لان الجنود غير النظاميين الذين كان يتالف منهم الجيش القديم كانوا معتادين الفوضى والعصيان، ويكرهون كل نظام.

المحاولة الاولى لتنفيذ المشروع واخفاقها عام 1815:

وقد حاول لاول مرة انفاذ فكرته سنة **1815** بعد عودته من حرب الوهابيين، ولكن هذه المحاولة اخفقت وكادت تودي بمركزه لولا ان عدل عنها وارجاها الى وقت اخر.

ذلك انه لما عاد من الحجاز امر بتدريب فرقة من جنود ابنه اسماعيل باشا على النظام الحديث، وذهب هو لهذا الغرض الى بولاق) اغسطس سنة 1815) واعلن رغبته في ادخال النظام الجديد في صفوفهم، وصارحهم بان من لم يذعن لهذا النظام يعاقب على تمرده، ولما عاد الى شبرا تذمر الجند من هذه الاوامر وارجفوا بها، فانتهز بعض رؤسائهم هذه الفرصة لياتمروابمحمد علي، ويسعوا في خلعه، وكادت تفلح المؤامرة لولا ان القوم افضوا باتفاقهم الى عابدين بك احد رؤساء الارناءود وكان قد عاد من الحجاز مريضا، فتوسم فيه المتامرون الموافقة على مؤامرتهم واجمعوا على ان يهاجموا ممد علي في قصره بالازبكية، فافضى عابدين بك الى محمد علي بهذا السر، فبارح قصره وذهب الى القلعة في منتصف الليل، ودخلها من طريق باب الجبل، وبالرغم من ذلك توافى المتمردون الى ميدان الازبكيةوتبادلوا وحرس السراي اطلاق الرصاص، فوقعت فتنة تشبه فتنة الجند سنة 1807، غير انها كانت اوسع مدى واعظم خطرا، فلما لم يجدوا بغيتهم ذهبوا الى ميدان الرميلة ..ومن هناك انحطوا على الاسواق ينهبون ويسلبون (3 أغسطس سنة 1815) ، وقد تذرع محمد علي بالحزم والحكمة في معالجة هذه الفتنة حتى اخمدها، وارجا النظام الجديد في الجيش الى وقت حتى يهيئ له وسائله ويبتغي ذرائعه.

رواية الجبرتي الخاصة تطوير الجيش

ذكر الجبرتي نبا محاولة محمد علي ادخال النظام الجديد في الجيش في رواية طويلة نوردها لما فيها من تاييد لما قلناه، وتفصيل لما اجملناه، قال في حوادث 25 شعبان سنة 1230 (3 أغسطس سنة 1815) :

"أمر الباشا جميع العساكر بالخروج الى الميدان لعمل التعليم والرماحة خارج باب النصر حيث قبة العزب، فخرجوا من ثلث الليل الاخير، واخذوا في الرماحة، والبندقة المتواصلة ذلك رجعوا د اخلية الى المدينة في كبكبة عظيمة، حتى زحموا الطرق بخيولهم من كل ناحية، وداسوا أشخاصا من الناس بخيولهم، بل وحميرا أيضا، واشيع ان الباشا قصده احصاء العسكر وترتيبهم على النظام الجديد واوضاع الافرنج، ويلبسهم الملابس المقطمة، ويغير شكلهم، وركب في ثاني يوم الى بولاق وجمع عساكر ابنه اسماعيل باشا وصفهم على الطريقة المعروفة بالنظام الجديد، وعرفهم قصده، وفعل ذلك بجميع العساكر، ومن ابى ذلك قابله بالضرب والكرد والنفي بعد سلبه حتى ثيابه، ثم ركب من بولاق وذهب الى شبرا، وحصل في العسكر قلقة ولغط، وتناجو فيما بينهم، وتفرق الكثير منهم عن مخاديمهم واكابرهم، ووافقهم على النفور بعض اعيانهم، واتفقوا على غدر الباشا، ثم ان الباشا ركب من قصر شبرا وحضر الى بيت الازبكية ليلة الجمعة ثامن عشرينه، وقد اجتمع عند عابدين باشا بك بداره جماعة من اكابرهم في وليمة

وفيهم حجوا بك وعبد الله اغا صاري، وحسن اغا الازرجانلي، فتفاوضوا بينهم في امر الباشا وما هو شارع فيه، واتفقوا على الهجوم على داره بالازبكية في الفجر، ثم ان عابدين بك غافلهم وتركهم في انسهم، وخرج متنكرا مسرعا الى الباشا، واخبره ورجع الى اصحابه، فاسرع الباشا في الحال الى الركوب في سادس ساعة من الليل، وطلب عساكر طاهر باشا فركبوا معه، واحاط المنزل بالعساكر، ثم اخلف الطريق وذهب الى ناحية الناصرية ومرمى الشباب، وصعد الى القلعة، وتبعه من يثق به من العساكر، وانحزم امر المتوافقين، ولم يسعهد الرجوع عن عزيمتهم، فساروا الى بيت الباشا يريدون نهبن، فمانعهم المرابطون وتضاربوا بالرصاص والبنادق وقتل بنيهم اشخاص ولم ينالوا غرضا فساروا الى ناحية القلعة واجتمعوا بالرميلة وقراديمان."

ثم ذكر الجبرتي تفاصيل تمرد الجند وانسيابهم في الاسواق ونهبهم الدكاكين والمتاجر واحداثهم من الشغب والاعتداء على اموال الناس وبضائعهم واخلالهم بالنظام ما جعل سكان العاصمة يضجون من مساوئهم.

موقف محمد علي ازاء الجيش القديم

قلنا ان محمد علي باشا قابل هذه الركة بالحلم والاناة ورجاحة العقل، وقد استغلها لخدمة مشروعه في انشاء جيش على الطراز الحديث قوامه النظام والطاعة، ذلك انه بادر الى اظهار استيائه مما احدثه الجنود المتمردون، وقرر دفع تعويض لجميع التجار الذين نهبت دكاكينهم ، وعهد بتقدير ذلك الى السيد محمد المحروق كبير التجار، ودفعت الحكومة فعلا التعويضات لمن وقع بهم النهب والاعتداء، فلهج الشعب بالثناء على محمد علي باشا وسخطوا على الجنود المتمردين، وكان في هذا العمل اكبر دعاية للنظام الجديد، واخذ الباشا يهيئ الوسائل لادخال ذلك النظام، ولكنه لم يبدا به الا سنة 1820، وهذا يدلك على اناته وبعد نظره، وقد مهد لذلك بتشتيت الجنود غير النظامية واخراجهم من العاصمة حتى لا يكون احتشادهم فيها مدعاة لتمردهم وتجديد الفتن، فوزعهم على الثغور الواقعة على البحر الابيض المتوسط كرشيد ودمياط، وبعض البلاد القائمة على فرعي النيل، ولكيلا يسبق الى قلوبهم انه يقصد تشتيتهم او معاقبتهم امر بان يرافقهم في معسكراتهم الجديدة بعض ابنائه كطوسون باشا واسماعيل باشا، ورؤساء جنده مثل محو بك وغيره، وامر باقامة ثكنات في البلاد التي اعدها لاقامتهم.

رواية الجبرتي من موقف محمد على إزاء الجيش القديم

قال الجبرتي في هذا الصدد: "وفي عاشر محرم سنة 1231 – 12 ديسمبر سنة 1815 – رجع الباشا من غيبته من الاسكندرية، واول ما بدا به اخراج العساكر مع كبرائهم الى ناحية بحري وجهة البحيرة والثغور، فنصبوا خيامهم بالبر الغربي والشرق تجاه الرحمانية، واخذوا صحبتهم مدافع وبارودا والات الحرب، واستمر خروجهم في كل يوم، وذلك من مكايده معهم، وابعادهم عن مصر جزاء فعلتهم المتقدمة، فخرجوا ارسالا، واستهل شهر ربيع الاول سنة 1231 وفيه سافر طوسون باشا واخوه اسماعيل باشا الى ناحية رشيد، ونصبوا عرضيهما عند الحماد وناحية ابي منصور، وحسين بك دالي باشا وخلافه مثل حسن اغا ازرجنلي ومحو بك وصاري جله وحجور بك جهة البحيرة ، وكل ذلك توطين وتلبيس للعساكر بكونه اخرج حتى اولاده العزاز للمحافظة، وكذلك الكثير من كبرائهم الى جهة البحر الشرقي ودمياط.

وقال عن بناء الثكنات للجنود الذين شتتهم محمد علي بالاقاليم: "ان الباشا امر ببناء مساكن للعسكر الذين اخرجهم من مصر بالاقاليم يسمونها القشلات بكل جهة من اقاليم الارياف لكن العساكر المقيمين بالنواحي لتضررهم يسمونها القشلات بكل جهة من اقاليم الارياف لكن العساكر المقيمين بالنواحي لتضررهم من الاقامة الطويلة بالخيام في الحر والبرد واحتياج الخيام في كل حين الى تجديد وترقيع وكثير خدمة،

وهي جمعة قشلة بكسر القاف وسكون الشيلن، وهي في اللغة التركية المكان الشتوي، لان الشتاء في لغتهم يمسى قش بكسر القاف وسكون الشين، فكتب مراسيم الى النواحي بسائر القرى بالامر لهم بعمل الطوب اللبن ثم حرقه وحمله الى محل البناء، وفروضا على كل بلد وقرية فرضا وعددا معينا فيفرض على القرية مثلا خمسمائة الف لبنة او اكير بحسب كبر القرية وصغرها، فيجمع كاشف الناحية اكثر او اقل، ويلزم بضربها وحرقها ورفعها واجلهم مدة ثلاثين يوما وفرضوا على كل قرية ايضا مقادير من افلاق النخل ومقادير من الجريد ثم فرضوا عليهم ايضا اشخاصا من الرجال لمحل الاشغال والعمائر يستعملونهم في نقل ادوات العمارة في النواحي حتى الاسكندرية وخلافها، ولهم اجرة اعمالهم في كل يوم لكل شخص سبعة انصاف فضة لا غير، ولمن يعمل اللبن اجرة ايضا، ولثمن الافلاق والجريد قدر معلوم لكنه قليل."

البدء في تنفيذ المشروع عام 1829 :

عاد محمد علي الى تحقيق مشروعه سنة **1820**، فاعتزم فتح مدرسة حربية في اسوان لتخريج ضباط الجيش، وكان من الضروري لادخال النظام الجديد ان يختار ضباطا ومعلمين على بصر باساليب ذلك النظام، ولا مندوحة ان يكونوا من الاوروبيين، لان هذه الاساليب كانت مجهولة في الشرق الى ذلك الحين، وقد وجد محمد علي عضدا كبيرا في ضابط فرنسي عظيم من ضباط الامبراطورية النابليونية وهب نفسه لخدمة مصر وتقدمها، وهو الكولونيل سيف الذي عرف بعد ذلك بسليمان باشا الفرنساوي،

فاليه يرجع الفضل الاكبر في معاونة محمد علي ومؤازرته في تاسيس الجيش المصري على النظام الجديد، بحيث صار يضارع ارقى الجيوش الاوروبية. وبرهن في ميادين القتال على انه لا يقل عنها ردية وكفاية.

سليمان باشا الفرنساوي

هو الكولونيل سيفSeves ، وهو فرنسي الاصل ولد في ليون سنة 1787، وكان ابوه صاحب مصنع في المدينة، ودخل في مهمة البحرية وحضر واقعة الطرف الاخر ثم انتظم في سلك الجندية البري وقاتل في حروب نابليون وارتقى في المراتب العسكرية حتى بلغ رتبة كولونل (أميرالاي) ، ولما انتهى عهد نابليون قضى على الكولونيل سيف بالخروج من الجندية وانقطع للتجارة والزراعة، ثم طلب الى صديق له وهو الكونت دي سيجور السعي لدى شاه العجم في ان يعهد اليه تنظيم جيشه، فنصحه بالذهاب الى مصر، فجاءها سنة 1819. وقابل محمد علي فاعجب به وعهد اليه تنظيم الجيش المصري على الاساليب الحديثة فكان له الفضل الكبير في الاضطلاع بهذه المهمة كما تراه مفصلا في سياق الكلام، وقد اعتنق الاسلام في مصر واختار لنفسه اسم سليمان فصار يعرف بسليمان بك.

واشترك في حرب المورة ثم في حرب الشام والاناضول كما فصلناه في موضعه وانعم عليه محمد علي سنة 1834 بالباشوية عقب الحرب السورية الاولى فعرف من ذلك الحين بسليمان باشا الفرنساوي، واشترك في الحرب السورية الثانية، وقد عين رئيسا عاما لرجال الجهادية اي للجيش المصري واحتفظ بهذا المنصب في عهد ابراهيم وعباس الى سعيدباشا ، وتوفى في سنة 1860، وهو المقام له تمثال في ميدان سليمان باشا بالقاهرة.

المدرسة الحربية الاولى باسوان

جاء الكولونيل سيف الى مصر كما قدمنا، فلماانس منه محمد علي باشا الكفاءة لتحقيق مشروعه انفذه سنة 1820 الى اسوان لتكوين النواة الاولى من الجيش، وبدا في العمل بان قدم اليه خمسمائة من خاصة مماليكه ليدرهم على ان يكونوا ضباطا في النظام الحديث، وطلب الى بعض رجاله ان يحذوا حذوه ويقدموا من عندهم من المماليك، فاجتمع لدى الكولونيل سيف الف من هؤلاء واولئك اخذ يدربهم مدة ثلاث سنوات على فنون الحرب واساليبها الحديثة، فصاروا نواة الجيش النظامي اذ تكونت منهم الطائفة الاولى من الضباط. قد اختار محمد علي اسوان لتخريج الطائفة الاولى من ضباط الجيش رجاة ان ينفذ مشروعه بعيدا عن الدسائس والانظار معا، ولكي يتم في رهيبة وسر دون ان يلتفت اليه الناس، فاذا نجح فالنجاح، وان خفق لا يكون لاخفاقه رد فعل يتزعزع مركز محمد علي،

وكان من دلائل بعد نظره وفراسته، ومما رغبه ايضا عن القاهرة خشيته ان يكون تعليم التلاميذ على يد ضابط اوروبي مثارا لهياج الخواطر فيها، وخاصة بني الجنود غير النظاميين الذين كانوا ينفرون من كل نظام جديد، ثم ليكون التلاميذ بمنجاة من اساليب اللهو بعيدين عن اماكنه فلا يفسد عليهم الاخلاق الحربية، فاختار لهم كما قلنا مدينة اسوان وانشا بها اربع ثكنات فسيحة لاقامتهم ولتكون مدرسة لهم، وقد عنى محمد علي بامر هذه المردسة وتنظيمها وامدادها بما تحتاجه من الادوات والاساليب، فهي اول مدرسة حربية انشاها لتكوين الجيش المصري النظامي. وقد ذكر المسيو فولابلي وكلوت بك ان الكولونيل سيف لقى صعوبات كبيرة في تدريب اولئك الشبان على الاساليب الحديثة، لان قوام هذه الاساليب النظام والطاعة المطلقة للرؤساء، والمماليك اعتادوا الصخب والضوضاء والاخلال بالنظام، ولم يالفوا من الحركات العسكرية سوى الكر والفر، فكان النظام والسكون اللذان لا مندوحة عنهما اثناء المناورات والتمرينات العسكرية مما لا يروق لهم، اضف الى ذلك انهم لم يعتادوا ان يتعلموا فنون الحرب على ضباط اوروبيين (مسيحيين)، فجاشت نفوسهم بفكرة التمرد والعصيان، ودبروا المؤامرات للفتك بالكولونيل سيف على مثال مؤامرات المماليك لاغتيال بكواتهم القدماء، فبينما كان ذات يوم يمرن اولئك الشبان على ضرب النار اذا باحدهم قد رماه برصاصة كادت ترديه، لولا انها انحرفت ومرت بجانب اذنه، وسمع صفيرها، فلم يتزعزع ولم يفقد شيئا من شجاعته ورباطة جأشها، بل استمر في عمله وامر التلاميذ باطلاق النار كرة جديدة.

وحدث مرة اخرى ان نزع تلاميذه الى العصيان وتهددوه بالقتل، فطلب اليهم ان يبارزوه متعاقبين واحدا تلو الاخر حتى لا يدنسوا انفسهم بالخيانة والغيلة، فكان لهذه الشجاعة والبطولة وسعة الصدر تاثير سحري في نفوس اولئك الفتيان الذين مهما يكن ما اتصفوا به من الغدر فانهم يقدرون الشجاعة حق قدرها، فبعد ان كانوا ناقمين عليهم صاروا من خاصة اوليائه يحيطونه باعجابهم واجلالهم، فتمكن الكولونيل سيف من اتمام تعليمهم في مدى ثلاث سنوات.

واستمر على هذا النحو الى ان تكونت من تلاميذه الهيئات الاولى من الضباط. وقد كان ابراهيم باشا يصحب احيانا الكولونيل سيف في اسوان، وكان لوجوده تاثير كبير في حمل الشبان على الطاعة واتباع النظام الجديد.

يؤخذ من البيانات المتقدمة ان اول مدرسة حربية للجيش النظامي هي مدرسة اسوانن وقد ذكر العلامة على باشا مبارك ضمن كلامه عن مدينة اسوان ما يلي: "وعلى نحو ثلثي ساعة من جهتها البحرية قصر وبستان من انشاء محمد بك لاظ أوغلي سنة 1238 هـ مدة اقامته بها من العساكر الجهادية الذين جعل العزيز محمد علي عليهم سليمان باشا الفرنساوي لتعليمهم القوانين الافرنجية العسكرية، وكان يقرب ذلك البستان قشلاق لاقامة ضباط العساكر، ثم جعل مكتبا للتلامذة على طرف الميري."

التجنيد فى عهد محمد على

وبعد ان توفر العدد الكافي من الضباط اخذ محمد علي يفكر في حشد الجنود وتنظيم صفوفهم، وهنا نشات صعوبة جديدة، وهي طريقة اختيار الجنود ومن اي الطبقات يحشدهم.

لم يشا في المبدأ ان يجند الاتراك ولا الارناءود في النظام الجديد، لما فطروا عليه من حب الشغب والنفور من النظام، والرغبة عن الطاعة، فاعرض عنهم، ولم يشا ايضا ان يفاجئ المصريين بتجنيدهم حتى لا يثير الهياج في البلاد لانهم لم يعتادوا التجنيد من عهد المماليك، فخشى اذا هو عجل بحشدهم ان يعدوا ذلك عبثا جديدا يثقل كاهلهم فوق اعباء الضرائب والاتاوات التي كانوا ينوءون بها، وخشى من جهة اخرى ان يؤدي تجنيدهم الى حرمان مصر من قيامهم على الزراعة فتسوء حالة البلاد الاقتصادية وتزداد ضنكا على ضنك، ففكر اولا في تجنيد السودانيين من سكان كردفان وسنار، وقد تقدم القوم بان من بواعث فتح السودان تجنيد اهله من السوداين يجمعان له ما وسعها الجمع، فجاءه منهم نحو عشرين الفا وانفذهم الى بني عدي حيث بدئ في تدريبهم هناك على النظام الحديث على يد الضباط المماليك الذين تخرجوا من مدرسة اسوان، واعدت الحكومة لاقامتهم وتدريبهم الثكنات الكافية والمؤن والمستشفيات والاسلحة والملابس، وبذلك محمد علي في هذا السبيل كل ما اوتي من قوة العزيمة والقدرة على التنظيم.

وقد اشار على باشا مبارك الى هذه الثكنات في كلامه عن بدي عدي بقوله: "وبها اثر قصر كان بناه محمد لاظ اوغلي مدة اقامته هناك بالعساكر بعد قيامهم من ناحية اسوان، فلابد ان يكون هذا القصر الذي بقى اثره الى حين تاليف الخطط التوفيقية (1305 هـ 0 1887) احد المباني التي اقيمت في بني عدي حينما شرع محمد علي في اتخاذها مكانا لتدريب الجنود على النظام الحديث، ومحمد لاظ اوغلي الذي يذكره علي باشا مبارك هو كتخدا (وكيل) محمد علي باشا، فهو اذن قد اقام هذا القصر بامر من مولاه.

على ان تجربة تجنيد السودانيين لم تصادف النجاح المرغوب ، فان معظمهم وقع فيهم الموتان لعدم موافقة جو مصر لمزاجهم وصحتهم، ولانهم لم يطيقوا اعباء الخدمة العسكرية، فاخذ محمد علي يفكر في الالتجاء الى تجنيد المصريين، وانشا ثكنات لتمرين المجندين منهم في فرشوط عدا ما انشاه في اسوان وبني عدي.

وفي يناير سنة 1834 تالفت الاورط الست الاولى من الجيش النظامي، وجعل المماليك الذين تخرجوا من مدرسة اسوان ضباطا، ومضت سنة 1823 ثم الاشهر التالية الى يونيه سنة 1824 في اتقان تدريب تلك الاورط، فاغتبط محمد علي بهذه النتيجة الاولى، واراد ان يشهد بنفسه مبلغ نجاح مشروعه فامر بنزول الاورط النظامية الى القاهرة

وعرضها في الخانكة وكانوا عدة الاف من المشاة البيادة شاكي السلاح كاملي العدة قاموا بمناورات حربية اثبتوا فيها دربتهم وحسن نظامهم، فاجب بهم محمد علي واغتبط بنجاح مسعاه، وانشا معسكرا عاما للجيش في الخانكة كان يحتوي دواما من 20 الى 25 الفا من الجنود النظاميين، وصارت الخانكة وابو زغبل مباءة للتعليم العسكري وما اليه، ففي ابي زعبل انشئ الـ مستشفى العسكري الاول، ثم مدرسة الطب، وانشئت المدرسة الحربية للمشاة ومدرسة اركان الحرب في الخانكة.

وعتزم تجربة جنوده النظاميين في ميادين القتال، فانفذ الاورطة الاولى الى الحجاز حيث كانت الثورات لا تخمد جذوتها، والثانية الى السودان، والاربع الاخرى الى بلاد الموره لمحاربة اليونانيين تحت قيادة ابنه ابراهيم باشا.

ومن الحق ان نعترف ان محمد علي لاقى صعوبات في تجنيد الاهلين، وحديث بسبب تذمرهم من التجنيد فتن تغلب عليها بالحزم والحكمة، ففي سنة 1824 (1240 هجرية) جاء القصير مغربي يسمى احمد فتن ادريس قادما من الحجاز فوقعت مشادة بنيه وبين عمال الجمارك على مكوس فرضوها على امتعته، فسار الى قنا ثم الى اسنا، وحرض الاهالي هناك على الفتنة وكانوا مستعدين للهياج لتذمرهم من التجنيد، وانضمت اليه الجموع الصاخبة وسار بهم الى فرشوط ، وكانت تستفحل الفتنة لولا ان الحكومة جردت عليهم القوات الكافية فشتت جموعهم وطاردتهم الى الجهات الصحراوية.

وترجع المصاعب في تجنيد الاهالي الى انهم كما قدمنا لم يالفوا الخدمة العسكرية ولم يكونوا مكلفين بها في عهد المماليك، وهذا نقص كبير في اخلاق الشعب الحربية، فانه ما من امة تنزع الى الاستقلال وتقدس الحرية الا وتجعل الخدمة العسكرية فرضا حتما على ابنائها في طبقاتهم كافة، فلما شرع محمد علي في تجنيد المصريين قابل الفلاحون هذا المشروع بالنفور والسخط، ولم ينتظموا في صفوف الجندية الا مكرهين، فكانت الحكومة تقبض على المجندين وتسوقهم قسرا الى المعسكرات، ومن الاسف انه ما زالت كراهية التجنيد باقية في نفوس معظم طبقات الشعب الى عصرنا هذا (1930) ، فالمتعلمون يكرهون التجنيد ويفرون منه، والسواد الاعظم من الامة يتحاماه ويمقته، وكل من يطلب للتجنيد يود ان يفتدى نفسه بما يستطيع من المال، ولا يمكن تدارك هذا النقص الا اذا تقدمت الطبقات المتعلمة واعطت المثال للطبقات الاخرى في احترام الجندية فلا يحمل بنا ان نلوم الفلاحين على نفورهم منه، لانهم اذ يرون المتعلمين يترفون عن الخدمة العسكرية فلهم العذر ان يتوهموا انها سخرة تبتلى بها الطبقات الفقيرة، وهذا الوهب يفسد الروح القومية والحربية في طبقات الشعب.

ولا يغيبن عنك ان نجاح تجربة تجنيد المصريين في عهد محمد علي وما برهن عليه الجيش من الكفاية والنظام يدل على مبلغ استعداد الامة المصرية لان تكون امة حربية، ويكفيك ان اخلاط السلطنة العثمانية، وكيف استعصى على محمد علي ان ينشئ من تلك العناصر جيشا نظاميا، وكيف انقاد له ذلك حينما عتمد على المصريين دون سواهم، فالف منهم الجيش الذي تردد ذكره في الخافقين لما ناله من الانتصارات الباهرة في ميادين القتال

وجد اذن محمد علي صعوبة كبيرة في تطبيع المصريين على نظام التجنيد، على انه وفق في مسعاه بفضل المثابرة وقوة العزيمة، لان الفلاحين بعد ان كانوا متهيبين من التجنيد راوا الحياة العسكرية ارفة واحسن حالا من معيشتهم في القرى طعاما ولباسا ومظهرا، فاخذوا يالفونها ويعتزون بها.

قال المسيو موريبه في هذا الصدد: "لما انتظم الفلاحون في صفوف الجيش النظامي الفوا بسرعة حياتهم الجديدة، وبعد ان كانوا معتادين الذل والمسكنة في قراهم استشعروا تحت راية الجيش بكرامتهم الانسانية، واخذوا يفخرون بانهم جنود محمد علي ويقابلون غطرسة الترك بمثلها، ولم يقبلوا ان يسموا فلاحين وعدوها تصغيرا لشانهم لان هذه التسمية كانت تشعر وقتئذ بشي من المهانة، ونالوا من الحكومة امرا لا ينبزهم احد بكلمة فلاحين."

ولما اتسعت دائرة التجنيد استدعى محمد علي من فرنسا طائفة من كبار الضباط ليعاونوه على تنظيم الجيش المصري، فتكونت طائفة الضباط المصريين على يد المعلمين الاوروبيين، وارسل طائفة من الشبان الى اوروبا لاتمام دروسهم الحربية هناك، فعادوا الى مصر بعد ان حذ قوا العلوم والفنون العسكرية، وحلوا في المدارس الحربية محل المعلمين الاجانب، واذا تاملت في البعثات التي اوفدها محمد علي الى اوروبا وجدت معظم افرادها قد تخصصوا للفنون الحربية وما اليها من الهندسة والرياضيات.

المدارس الحربية فى عهد محمد على

مدرسة أسوان

قلنا ان مدرسة اسوان هي اول مدرسة حربية اسسها محمد علي باشا على النظام الحديث، وقد اسست مدرسة حربية اخرى في فرشوط، ومثلها في النخيلة واخرى في ابار(جرجا)

مدرسة قصر العيني

وانشئت سنة 1825 مدرسة اعدادية للتعليم الحربي بقصر العيني، كانت تعرف بالمدرسة التجهيزية الحربية، وعدد طلبتها نحو 500 تلميذ يعدون لدخول المدارس الحربية والمدرسة البحرية ثم للمدارس العالية الاخرى، ونقلت الى ابي زعبل بعد ان خصص قصر العيني لمدرسة الطب، وقد زارها المارشال مارمون سنة 1834، فالفى بها من التلاميذ 1200 تلميذ.

ويقول المسيو مانجان ان بهذه المدرسة مكتبة كانت تحوي سنة 1837 15000 مجلد.

مدرسة المشاة بالخانكة ثم دمياط ثم بأبي زعبل

وجه محمد علي عنايته لتنظيم فرق المشاة (البيادة) في الجيش المصري، وانشا لتخريج ضباط هذه الفرق مدرسة حربية في الخانكة على احدث نظام، بلغ تلاميذها 400 تلميذ قسموا الى ثلاثة بلوكات، يتعلمون فيها التمرينات والادارة الحربية، واللغات العربية والتركية والفارسية، ثم نقلت المدرسة الى دمياط سنة 1834 وكان ناظرها ضابطا من مقاطعة البيمونت بايطاليا واسمه المسيو بولونيني كان من ضباط الامبراطورية النابليونية فاستخدمه محمد علي ورقاه الى رتبة قائمقام، ثم نقلت المدرسة الى ابي زعبل سنة 1841.

مدرسة الفرسان بالجيزة

ذكر كلوت بك في كتابه ان تشكيل فرق الفرسان في الجيش المصري لم يبدا بحسب النظام الجديد الا بعد عودة الجيش من حرب المورة، ذلك ان ابراهيم باشا قد شاهد في خلال هذه الحرب حسن نظام الخيالة الفرنسيين فادرك اهمية تنظيم الفرسان. وعلى اثر عودته الى مصر شرع في تشكيل فرق الخيالة على النظام الاوروبي واستعدى لهذا الغرض عددا من المعلمين الاوروبنيين.

انشئت المدرسة الحربية للفرسان بالجيزة في قصر مراد بك فحول الى ثكنة جميلة للفرسان، وتولى تنظيم المدرسة المسيو فاران من ضباط الامبراطورية النابليونية ياور المارشال جوفيون سانسير ، وتلاميذها من الشبان يتعلمون مناورات الفرسان وحركات المشاة ويلبسون اكسية تطابق ملابس الفرسان الفرنسيين ما عدا القبعة، ويتولى التدريس في هذه المدرسة ضباط لقيادتهم ومدرسون يدرسون لهم اللغتين العربية والتركية.

وكانت المدرسة تتبع نظام مدرسة سومور الحربية بفرنسا الا بعض تعديلات طفيفة استلزمتها الظروف المحلية، وفيها اساتذة لتعليم اللغة الفرنسية والرسم والمبارزة وترويض الخيل، وفيها رئيس للادارة الحربية، ويتعلم فيها الطلبة فوق ما تقدم استعمال النفير وسائر ضروب الموسيقى المستعملة في فرق الفرسان، وطلبتها خليط من الشبان المصريين والترك يتخرجون منها ضباطا لفرق الفرسان، وكان لهذه المدرسة ناظر يقوم على النظام فيها، وله توقيع الجزاءات على من يستحقون العقاب من مرؤوسيه ، وتوزيع الاغذية والعلف، ويتصل بناظر الحربية ويتبع اوامره.

وقد زار المارشال مارمون هذه المدرسة سنة 1834، وكان بها اذ ذاك 360 تلميذا فاعجب بها وكتب عنها في رحلته مايلي:

" عندما شاهدت هؤلاء الطلبة في الميدان يقومون بالمناورات خيل لي اني امام طابور من ارقى الايات الخيالة عندنا. ولئن كان ينقص المدرسة لتصل الى درجة الكمال بعض دروس في اللغة والرسم وغير ذلك ولكن مما لا نزاع فيه انها من جهة تنظيم فرق الفرسان لا ينقصها شئ، فالطلبة يجيدون ركوب الخيل، والمناورات التي يقومون بها تجري بخفة ودقة واحكان، ونظامهم وهندامهم على احسن مـ ا يكون، والروح المعنوية فيهم على ما يرام، فهم جنود بكل معاني الكلمة، وحملة الابواق يؤدون عملهم باتقان."

مدرسة المدفعية بطره

شكلت المدفعية النظامية في الوقت الذي نظمت فيه المشاة على الطراز الحديث، وتولى تنظيمها جماعة من الضباط الفرنسيين، وعاونهم في العمل ضباط من المصريين وفي مقدمتهم الضابط القدير ادهم بك (باشا) الذي اسس ترسانة القلعة وتولى ادارة المهمات الحربية ثم رئاسة ديوان المدارس (وزارة المعارف العمومية)

وانشئت في طرة مدرسة حربية للطوبجية (المدفعية) تولى ادارتها ضابط اسباني يدعى الكولونيل (الميرالاي (الدون انطونيو دي سيجرا، وهو الذي عرض على محمد علي انشاء ها لتخريج ضباط المدفعية للجيش المصري، وعرض مشروعه ايضا على ابراهيم باشا قائد الجيش العام فنال تاييده، ومن ثم انشئت المدرسة على الوضع الذي اقترحه الميرالاي سيجيرا، وقد ذكر العلامة علي باشا مبارك هذه المدرسة في كلامه عن طره فقال: "وكان بطره مدرسة الطوبجية وهي مدرسة جليلة من انشاءات العزيز محمد علي تربى بها جملة من الامراء برعوا في فنون الطوبجية"، ثم نقل ما كتبه الدوق دي راجوز (المارشال مارمون) عنها مما سنذكره في موضعه.

وقد اختير لهذه المدرسة من التلاميذ ثلثمائة من خريجي مدرسة قصر العيني الاعدادية اخذوا يتلقون فيها الدروس الحربية، واللغتين العربية والتركية والحساب والجبر والهندسة والميكانيكا والرسم والاستحكاما ت، ويتمرنون على المرمى بالمدافع على يد معلمين حربيين، وكان الكولونيل سيجيرا نفسه يعلمهم دروس الرياضة والرسم، وقد تقدموا في علومهم وبرهنوا على كفايتهم في الحرب السورية، وتبارت المدفعية الثقيلة والمدفعية الخفيفة في النشاط والجدارة، قال مانجان: وضباط المدفعية المتخرجون من هذه المدرسة متعلمون مثقفون.

ولم يغرب عن بال محمد علي باشا اهمية هذه المدرسة فاراد ان يرى بنفسه سير التعليم فيها فزارها واختبر شئونها فابدى ارتياحه وسروره من اساتذتها وتلاميذها ومعداتها، وكافا الكولونيل سيجيرا بالانعام عليه برتبة البكوية مع لقب لواء، والحق بالمدرسة اورطة للمدفعية المشا ة واورطة اخرى للمدفعية الركبان، وانشئ لها ميدان لضرب النار للجنود والتلاميذ، وضع به اربع وعشرون بطارية من المدافع للتمرين عليها.

وكان للمدرسة مستشفى خاص يديره طبيب يساعده صيدلي لمعالجة المرضى.

مدرسة أركان الحرب بالخانكه

انشئت هذه المدرسة بالخانكة بناء على اقتراح عثمان نور الدين باشا بالقرب من المعسكر العام للجيش.

وقد ذكرها المسيو دور في كتابه عن التعليم العام بمصر وكلوت بك، ولم يذكروا تفصيلات عنها، ويسميها رفاعة بك رافع مكتب الرجال بالخانقاه.

مدرسة الموسيقى العسكرية

قرر محمد علي تنظيم الجيش المصري على مثال الجيوش الاوروبية من كل وجه، فامر باعداد طائفة من الموسيقيين لكل الاي، واحضر من اوروبا ما يلزم الجيش من الات الموسيقى، وكذلك احضر المدرسين الاوروبيين لتعليم المصريين الموسيقى الافرنجية الحربية، فانشا في الخانكه معهدا لتعليم الموسيقى يسع 130 تلميذا تولى التدريس فيه اربعة من الموسيقيين الفنيين، وعين المسيو كاريه مديرا له، وكانت تدرس فيه ايضا اللغة العربية على يد اساتذة مصريين.

وقد ابدى التلاميذ المصريون اتقانا وبراعة ونبوغا في فنون الموسيقى شهد بها الافرنج، قال المسيو مانجان في هذا الصدد: "ان اولئك الشبان الفلاحين قد ابدوا من السهولة في توقيع الالحان الصعبة من النوتات ما ادهش العازفين بالفن وخاصة الافرنج الذين اجتذبتهم الى وادي النيل شهرة محمد علي."

وهذه المدرسة كانت تخرج الموسيقيين الذين يحتاج اليهم الجيش المصري ولكن الدكتور كلوت بك لاحظ في كتابه ان برنامج المدرسة قام على قاعدة خاطئة، ذلك ان تضمن نقل الموسيقى الاوروبية بنغماتها واناشيدها الاوروبية الى نغمة شرقية لا تتعود الالحان الاوروبية، فلم تؤثر في نفوس التلاميذ التاثير الفني المطلوب

ولم تتحرك لها قلوبهم، وان الواجب كان يقضي باحضار فنانين عارفين بالموسيقى العربية ليؤلفوا منها ومن الالحان الاوروبية موسيقى خاصة تتاثر لها نفوس المصريين، ويقول ان الحكومة في عهد محمد علي قد الغت معهد الموسيقى بالخانكة مع انه خرج عددا لا باس به من الموسيقيين القادرين واستعاضوا عنه بان جعلوا لكل الاي من الجيش معلما اوروبيا، ولكن لم يكن من الميسور لمعلم واحد ان يضطلع بهذه المهمة ولذلك لم تصل الموسيقى الحربية في مصر الى مجارة الموسيقى الاوروبية.

المصانع الحربية في عصر محمد علي

راى محمد علي بثاقب نظره ان انشاء جيش يحمي الدمار امرا لا قوام له الا بان يجد كفايته من السلاح والذخيرة والمدافع في داخل البلاد، اذ الاعتماد على جلب السلاح من الخارج يعرض قوة الدفاع الوطني للخطر ويجعل الجيش والبلاد تحت رحمة الدول الاجنبية، لذلك بذل جهده في انشاء مصانع الاسلحة في مصر، فاسس قائد المدفعية ادهم بك ترسانة القلعة لصنع الاسلحة وصب المدافع، وتولى ادارتها.

وقد حدث في القلعة حريق هائل سنة **1824** امتد الى مخزن البارود فخرب معظم الترسانة وتخرب نحو خمسين منزلا من المنازل المجاورة للقلعة ومات في هذه الكارثة نحو اربعة الاف نفس.

ويقول المسيو مانجان ان ترسانة القلعة لم تكن شيئا مذكورا الى سنة **1827**، ولكنها عظمت واتسعت ارجاؤها بمضي الزمن فصارت معاملها تمتد من قصر صلاح الدين الى باب الانكشارية الذي يطل على ميدان الرميلة.

وكان بها 900 من العمال لصنع الاسلحة، ويصنع فيها كل شهر من 600 الى 650 بندقية، تتكلف كل بندقية اثنى عشر قرشا مصريا، ويدفع لرؤساء العمال مرتبات ثابتة، اما العمال الاخرون فتدفع لهم اجور يومية.

وكان بها قسم خاص لصنع زناد البنادق، والسيوف والرماح للفرسان، وحقائب الجنود، وحمائل السيوف، وكل ما يلزم لتسليح الجنود من المشاة والفرسان وحيلة الخيل من اللجم والسروج وما اليها، وفيها مصنع واسع لعمل صناديق البارود ومواسير البنادق، ومصنع آخر لصنع الواح النحاس التي تستخدم لوقاية السفن الحربية.

معمل صب المدافع

وكان اهم مصناع الترسانة واكثرها عملا واولاها باسترعاء النظر معمل صب المدافع. تصنع فيه كل شهر ثلاثة مدافع او اربعة من عيار اربعة وثمانية ارطال، وتصنع فيه احيانا مدافع الهاون ذات الثماني بوصات ومدافع قطرها 24 بوصة.

ولا يقل عمال هذه الترسانة عن 1500 عامل وتستهلك فيها كل شهر كمية عظيمة من الفحم والحديد.

مخازن البارود والقنابل

اما مخازن البارود والقنابل فقد اعد لها محمد علي مكانا خاصة على سفح المقطم.

راي المارشال مارمون في ترسانة القلعة

وقد زار المارشال مارمون ترسانة القلعة سنة 1834 واعجب بنظامها واعمالها، وكتب عنها في رحلته ما يلي: "زرت دار الصناعة وعنيت بها فحصا وتقصيا، فالفيت البنادق التي تصنع فيها بالغة من الجودة مبلغ ما يصنع في معاملنا، وهي تصنع على الطراز الفرنسي، وتتخذ فيها الاحتياطات والوسائل التي نستعملها نحن لضمان جودة الاسلحة، وتتبع النظام نفسه الذي نتبعه نحن في تصريف العمل وتوزيعه والرقابة عليه، وكل ما يصنع فيها يعمل قطعة قطعة، ومعمل القلعة يضارع احسن معامل الاسلحة في فرنسا من حيث الاحكام والجودة والتدبير."

ابراهيم ادهم باشا

تقدم القوم بان ادهم بك (باشا) كان في مقدمة الضباط الاكفاء الذين نهضوا بالمدفعية المصرية، وانه تولى ادارة المهمات الحربية، واسس دار صناعة ترسانة القلعة لصنع الاسلحة وصب المدافع.

وادهم بك هذا هو من خيرة رجال محمد علي ومن اصدق من بذلوا جهودهم في تاسيس الجيش النظامي، وهو ايضا ممن حملوا لواء نهضة التعليم في مصر، فقد تولى ادارة ديوان المدارس (وزارة المعارفة العمومية) عشر سنوات ونيفا.

وقد ذكره العلامة علي باشا مبارك فقال عنه انه: "كان من اشهر رجال الحكومة صادقا في القيام بوظائفه مع الاجتهاد."

وذكر عن ترجمته ما خلاصته ان اصله من الاستانة ثم استوطن مصر في عصر محمد علي باشا حين تاليف الجيش النظامي، فجعله ضابطا في المدفعية، وكان ملما باللغات الفرنسية والعربية والتركية والتشكيلات العسكرية، وتنظيم المهمات، وقد جعله محمد علي ناظرا للمهمات الحربية، فبذلك فيها جهده وحمدت مساعيدن واقام بهذه الوظيفة زمنا ثم ترقى الى رتبة اميرالي ، وكان يتلقى عنه الهندسة جماعة من رجال الحكومة مثل ابراهيم بك رافت وكيل ديوان المدارس، ومصطفى راسم مدرس الهندسة بمدرسة القصر العيني، وحسن افندي الغوري مدرس الهندسة بمدرسة المدفعية بطره.

وقد وشى في حقه احد حساده سنة 1249 هـ واوغر عليه صدور رؤسائه، ففصل عن وظيفته، واقيمت عليه قضية استمرت نحو ثمانية اشهر وظهرت براءته منها، وكان خلال ذلك لا يفتا يؤدي واجبه نحو البلاد ببذل النصح والارشاد الى من يقصدونه من محبي العلم.

قال علي باشا مبارك في هذا الصدد: "وكان المعلمون في الورش يحضرون اليه في منزله ويستفهمون منه عن العمل في البنادق والمدافع ونحو ذلك وهو يفيدهم بجد واجتهاد رغبة منه في خدمة الديار المصرية.

ولما عاد ابراهيم باشا من الحرب السورية سنة 1259 هـ (1834م) اثنى عليه عند محمد علي باشا وذكر نصحه واجتهاده في خدمته فانعم عليه برتبة امير لواء واعيد الى وظيفته، وبعد وفاة مصطفى مختار بك اضيفت اليه شئون المدارس فصار مدير ديوان المدارس (وزير المعارف العمومية) وتولى هذا المنصب نحو عشر سنوات (1839 – 1849).

وفي زمن عباس باشا الاول تولى وزارة المعارفة بضعة اشهر (أكتوبر سنة 1849 – مايو 1850)، ثم نقل الى مديرا للمهمات الحربية وجعل له في نظر اوقاف الحرمين الشريفين، وانعمت عليه الحكومة جزاء خدماته بارض مساحتها 850 فدانا في جهة سيرباي بمديرية الغربية.

وفي زمنسعيد باشا جعل (محافظ مصر) وانعم عليه بالباشوية فصار يعرف بادهم باشا واحيل عليه قلم الهندسة مع المهمات الحربية.

وتولى من جديد في عهد اسماعيل باشا وزارة المعارف العمومية عدة اشهر (يناير – يوليه سنة 1836) ثم اعتزل الخدمة، وكانت وفاته سنة 1869.

قال عنه علي باشا مبارك: "وكان رقيق القلب، رحيما ، كثير الصدقة، يباشر المصالح بنفسه بلا تعاظم ولا تكبر، ويلاطف اصحاب الحاجات حتى يقف على حقيقة شكواهم، ويقوم بنصرة المظلوم، واعتنى بالمدارس واجتهد في اسباب الرغبة فيها، فكان يجل المجدين من التلامذة والمعلمين، ويسعى في ترقيتهم ليجهتد غيرهم، فظهرت النجابة في جميعهم او اكثرهم وحصلوا في وقته تحصيلا جما، ومن انشائه مكتب مدرسة السيدة زينب رضي الله عنها، ومكتب بولاق ومكاتب اخرى، وبالجملة فكان كالوالد لابناء المدارس وله اصلاحات ايضا بالجامع الازهر زمن نظارته على الاوقاف."

وقد التقى به المارشال مارمون خلال زيارته لمصر واعجب به وبكفائته فقال عنه: "انه تعلم اللغة الفرنسية بقوة ارادته على غير استاذ، وانه يتكلمها بلهجة صحيحة، وتبحر في الرياضيات، وفنون المدفعية، وصار في نظري يضارع احسن ضباط المدفعية، وكافا مديري مهماتها، وهو من اقوى من عرفتهم في حسن الادارة، وان اختيار محمد علي لمثل هذا الرجل لمعاونته لدليل على صدق نظره وفراسته وحسن توفيقه في اختيار رجاله."

مصنع البنادق في الحوض المرصود

لم يتكف محمد علي بمصنع البنادق في القلعة،بل انشا في الحوض المرصود حوالي سنة 1831 معملا اخر لصنع البنادق، وكان من قبل معدا للنسيج، وقد تكلم عنه المسيو مانجان فقال ان محمد علي عهد بادارته الى رجل ايطالي من جنوه يسمى المسيو مارنجو، وقد تسمى باسم علي افندي، قال عنه: "وقد اكتسب خبرته يعمله في ترسانة القلعة تحت امرة ادهم بك، وقد اشتغل بجد وعزيمة وتخرج على يديه طائفة من الصناع مهروا في صنع البنادق على اختلاف طرازها."

وبلغ عدد عمال الحوض المرصود حوالي سنة 1837 1200 من بين صناع ورؤساء عمال يصنعون في الشهر نحو 900 بندقية من مختلف الانواع والاشكال، فمنها ما هو للمشاة ومنها ما هو للفرسان وللطوبجية على الطراز المتبع في الجيش الفرنسي ،وكذلك الحال في معامل القلعة.

ومتوسط ما تتكلفه البندقية اربعون قرشا اي بازيد مما تتكلفه البندقية التي تصنع في ترسانه القلعة بثمانية وعشرين قرشا، وقد سال المسيو مانجان عن سبب هذا الفرق، فقيل له ان ذلك راجع الى الفرق في عدد العمال وكمية الفحم والحديد في كلا المصنعين، على انه لم يقنع بهذا السبب.

وكانت تعمل تجربة المدافع في كل اسوبع، وقد لاحظ المسيو مانجان ان الحديد الذي كانت تصب منه المدافع التي شاهدها سنة 1837 من نوع غير جيد، فكانت النتيجة ان يستغني عن خمس عدد المدافع المصنعة لانه لم يحتمل التجربة، قال: واذا كان الحديد من النوع الجيد الواجب استعماله لا تتجاوز الكمية الملغاة منه السدس.

ويقول ان البنادق التي تصنع في معامل القلعة والحوض المرصود كانت صناعتها جيدة، ولا يستطيع الانسان ان يلحظ عيبا في صناعتها الا اذا كان على خبرة بسر الصنعة، والعيوب اتية على الارجح من نوع الحديد لا من عدم مهارة الصناع.

وقد ذكر المارشال مارمون في رحلته انه شاهد مصنعا ثالثا للاسلحة في ضواحي القاهرة وان المصانع الثلاثة تصنع في السنة 36 ألف بندقية عدا الطبنجات والسيوف.

معامل البارود

واقيم معمل البارود في المقياس بطرف جزيرة الروضة، وكان بناؤه فسيحا ومناسبا وبعيدا عن المساكن، وقد تولى ادارته المسيو مارتل الذي كان من قبل مستخدما في معمل البارود بمدينة سان شاماس وتولى العمل تحت ادارته تسعون عاملا موزعا على اقسام المعمل، منهم 18 عاملا كانوا يشتغلون في خلط الكبريت والفحم وملح البارود و21 عاملا يشتغلون في تقليب البارود في الطواحين وعددها عشرة، ولكل طاحون عشرون مدقة، تحركها عشر آلات تديرها البغال ويقودها عشرة رجال، واربعون عاملا يشتغلون في صنع الرش ويصنع منه كل يوم 35 قنطارا.

وكان يصنع البارود بطريقة التبخير، وهذه الطريقة اوفر من طريقة النار. وقد تعددت معامل البارود في مصر وكانت تسمى (كهرجالات) وهاك اسماءها ومقدار الناتج منها سنة 1833:

المعمل	الانتاج (بالقنطار)
معمل القاهرة	9621
البدرشين	1689
الفيوم	1533
أهناس	1250
الطرانة	412
الاجمالي	15784

ملابس الجند ومرتباتهم

وصفت كلوت بك ملابس الجند في عهد محمد علي فقال انها غاية في البساطة، تتالف بالنسبة للجنود من طربوش احمر، وصدار وبنطلون، وهو يشبه السروال الواسع يشد بتكة من الوسط، ويربط على الركبة برباط الساق (القلشين)

ويتمنطق الجنود على خواصرهم بحزام، وملابسهم في الشتاء من الجوخ، وفي الصيف من قماش القطن السميك، اما الفرسان ورجال المدفعية والحرس فيلبسون في الشتاء صدارا ازرق اللون، وغيرهم يلبس صدارا احمر، ويرتدي رجال الجيش جميعهم في الصيف الملابس البيضاء، ويحتذون باحذية من الجلد الاحمر (مراكيب.(

ولا يختلف رداء الضباط عن رداء العساكر، الا في نوع الجوخ وما يزينه من التطريز، واللون الاحمر يميز الضباط عن سواهم، اما الشارات التي تميز بعضهم عن بعض بحسب مراتبهم، فهي كما يلي:

يحمل الاونباشي شريطا واحدا على الصدر والجاويش شريطين، والباشجاويش ثلاثة، والملازم الاول يحمل على صدره من ناحية اليمن نجمة فضية، واليوزباشي نجمة وهلالا فضيين، والصاغ هلالا من الذهب ونجمة فضية، والبكباشي هلالا نجمة من الذهب، والقائمقام هلالا من الذهب والفضة ونجمة من الماس، والاميرالاي هلالا ونجمة من الماس، وامير اللواء نجمتين في هلال كلها من الماس، والفريق الميرميران ثلاث نجوم في هلال كلها من الماس.

ويقول كلوت بك ايضا ان عطاء (مرتب) الجندي البسيط 15 قرشا في الشهر، ومرتب الانباشي 25 قرشا، والجاويش 30 قرشا، والباشجاويش 40 قرشا، والصول 60 قرشا والملازم الثاني 250 قرشا، والملازم الاول 350 قرشا، واليوزباشي 500 قرش والصاغ 1200 قرش (12 ج)، والبكباشي 2500 قرش (25 ج)، والقائمقام 3000 قرش (3 ج) والاميرالاي 8000 قرش (80 ج) وامير اللواء 11000 قرش (110 ج) والميرميران 12500 قرش (125 ج)

ديوان الجهادية

نشا محمد علي نظارة الحربية كانت تعرف بديوان الجهادية، عهد اليه قيادة الجيش وادارة شئونه، وناط بها جميع ما يجلب للجيش من سلاح ومهمات وثياب، وهي التي تجلب من مخازن الحكومة ما يلزمه من الذخائر والمؤن والادوية وما اليها.

وقد نظمت الجيوش المصرية على نمط الجيوش الفرنسية، وكذلك ادارتها الصحية، وبكل اورطة العدد اللازم من الموظفين والادوات لاقامة المستشفيات الخاصة بالاورط.

الروح الحربية

ان تاليف الجيوش النظامية والمران على الحياة العسكرية وخوض غمار كل ذلك مما قوى الروح الحربية في نفوس الشعب.

صحيح ان المصريين لم يعاتدوا الانتظام في سلك الجيش منذ الفتح العثماني، ولكنهم لم يفقدوا الروح الحربية في عهد المماليك، اعتبر ذلك بالمقاومة المستمرة البعيدة المدى التي قام بها المصريون قاطبة في وجه الحملة الفرنسية، مما بسطنا الكلام عنه في الجزئين الاول والثاني من تاريخ الحركة القومية، وهم وان كانوا لم يالفوا الاندماج في سلك الجيوش النظامية ولم يقبلوا على التجنيد الذي رسم محمد علي قواعده طائعين،

بل سيقوا اليه مكرهين، الا ان الفلاحين الذين انتظموا في سلك الجيش ما لبثوا كما قلنا ان راوا في حياة الجندية نظاما ارقى من حياتهم الفردية، فاخذوا يالفونه مع الزمن، وقد افادهم الفوائد العظيمة، فلا يغرب عن البال ان تنظيم الجيش كان له اثار بعيدة المدة في حالة البلاد السياسية والاجتماعية، فان تاليف جيش قومي خاض غمار الحروب في ميادين عدة من شانه ان يغرس في النفوس فكرة القومية، اذ هو نفسه جسم هذه الفكرة.

قال المسيو مانجان في هذا الصدد: "ان محمد علي بهدمه الجيش غير النظامي، وتجنيده الفلاحين على النظام الاوروبي قد اكسب شعبه تقدما عظيما، ورد الى مصر قوميتها."

ويقول كادلفين وبارو في كتابها:

"ان العرب (يريد المصريين) من سكان وادي النيل لم يكن لهم منذ الفتح العثماني حق الانتظام في الجيش، ولكن محمد علي قد اعاد اليهم هذا الحق، وهو بتجنيدهم – ولو ان ذلك كان على كره منهم – قد رفع من شانهم وانتشلهم من الوهدة التي نزلوا اليها، وقد استردوا سمعتهم بما اظهروه من الشجاعة في ميادين الحروب التي خاضوها."

ولا شك في ان انضواء الجنود والضباط تحت علم الجيش مما يعودهم حب النظام، والنظام هو من العوامل الرئيسية لارتقاء الامم وتقدمها، فليس ثمة نهضة من غير ان يكون النظام رائدها. وكذلك من خصائص الحياة العسكرية ان تبث الشجاعة في نفوس الامة وتغرس فيها مبدا افتداء الوطن بالنفس والنفيس، ذلك المبدا الذي هو من اقوى دعائم الاستقلال والحرية، فالروح الحربية المصرية قد تجلت تحت راية الجيش النظامي وساعدت على تاليفه، كما ان تكوين الجيش نفسه كان له اثر فعال في نمو تلك الروح وبروزها واكتمالها.

هذا فضلا عما فطر علي المصري من الايمان والقناعة والطاعة، والصبر على المكاره، والاطمئنان الى قضاء الله وقدره، كل هذه الصفات جعلت من الفيالق المصرية النظامية جيوشا ضارعت ارقى الجيوش الاوروبية في الدربة والكفاية والشجاعة، ولقد برهنت على هذه المزايا في ميادين القتال التي خاضت غمارها.

شهادات الثقات للجيش المصري

ويكفيك ان تقرا في هذا الصدد شهادة الثقات لتزداد اعتقالا بصحة هذه الحقائق.

راي سليمان باشا الفرنساوي

فقد شهد البارون (بوالكونت (الجيش المصري في سورية سنة 1833 وقابل الكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوي) فقال له يصف الجنود المصريين:

"ان العرب (يريد المصريين) هم خير من رايتهم من الجنود، فهم يجمعون بين النشاط والقناعة والجلد على المتاعب مع انشراح النفس وتوطينها على احتمال صنوف الحرمان، وهم بقليل من الخبز يسيرون طول النهار يحدوهم الشد والغناء، ولقد رايتهم في معركة قونية يبقون سبع ساعات متوالية في خط النار محتفظين بشجاعة ورباطة جاش تدعوان الى الاعجاب دون ان تختل صفوفهم اويسري اليهم الملل او يبدو منهم تقصير في واجباتهم وحركاتهم الحربية.

راي كلوت بك

وقال كلوت بك في كتابه:

" ربما يعد المصريون اصلح الامم لان يكونوا من خيرة الجنود، لانهم على الجملة يمتازون بقوة الاجسام وتناسب الاعضاء والقناعة والقدرة على العمل، واحتمال المشاق، ومن اخص مزاياهم العسكرية وصفاتهم الحربية الامتثال للاوامر، والشجاعة، والثبات عند الخطر، والتذرع بالصبر في مقابلة الخطوب والمحن، والاقدام على المخاطر، والاتجاه الى خط النار وتوسط معا مع القتال بلا وجل ولا تردد."

وذكر كلوت بك حوادث عدة تاييدا لتلك الحقيقة، وقال انه يكتفي منها بالحوادث الاتية:

حدث في معركة حمص ان جنديا من الاورطة السابعة من الفرسان يدعى منصور فصلت ذراعه من جسمه بقنبلة، فابى وهو في هذه الحالة التراجع عن ميدان القتال، بل تقدم رجال كتيبته حاملا على العدو باشد الباس واروع البسالة وظل يحارب الى ان مات.

وحدث في معركة قونية ان ترك جميع الجرحى القادرين على حمل السلاح اسرتهم في المستشفى ونفروا الى ميدان القتال ليشاطروا اخوانهم مجد الانتصار او شرف الموت.

وفي تلك المعركة سقط جندي من الاورطة الرابعة من الفرسان عن ظهر جواده مجروحا، فلما شهده امير لوائه احمد المنكلي بك دفع اليه جواده ليرجع به الى الساقة، فابى الجندي قائلا انه يفضل البقاء في ميدان القتال ليشهد اخوانه منتصرين ولو لقى الموت.

وفي احدى المعارك اصيب شاب يحمل النفير من جنود الاورطة الخامسة عشرة بجرح، وراى ان رفاقه في فصيلته قد هزمهم العدو وشتتهم، فعلى الرغم من خطورة جرحه واحتدام نار القتال لم يكف عن النفخ في بوقة باشارة الاستمرار على الحملة ومتابعة الهجوم، ولم يتراجع خطوة واحدة الى الوراء، ولما شاهد زملاؤه الفارون فغله عراهم الخجل من رؤيته وهو فتى صغير يضرب لهم امثال الشجاعة والبطولة فحمى دمهم وتوافي بعضهم الى بعض، ثم كروا الى القتال ليثارون لشرفهم الذي ثلمه العدو لحظة من الزمن.

ثم ذكر كلوت بك حادثة اخرى قال عنها انها من اهم الحوادث واخصها بالذكر، وهي ان سليمان باشا الفرنساوي كان ذات يوم يعرض اورطة وصلت اليه حديثا، فوقع نظره على فتى ضاو نحيل في السادسة عشرة من عمره يدعى الحاج علي، فهم سليمان باشا ان يرده معترضا بانه لا يصلح ان يكون جنديا كفئا، فابى الحاج علي الا ان يبقى في السلاح قائلا لسليمان باشا ان الحكم عليه انما يكون في عمله ومتى سنحت الفرصة تبين الحكم، فلما ضرب الجيش المصري الحصار على عكا خرجت الحامية يوما فاستظهرت على المشاة المصريين وردت جنود الاورطة الثامنة المقاتلة في الجبهة في اعقابها، فتقدمت الاورطة الثالثة من الفرسان التي كان الحاج علي منتظما في سلكها لتعزيز جانب اولئك الجنود، وحملت حملة باهرة صدت فيها المحصورين والجاتهم الى مواقعهم، ولم يكتف الحاج علي ان شاطر رفاقه مجد فوزهم بل انقذ بيده يوزباشيا كان على وشك الوقوع في اسر العدو،

ثم انقض على ضابط تركي فاسره، وجاء بالضابطين المصري والتركي الى سليمان باشا وقال له: "أفترى انني جندي لا اصلح لشيء؟."

قال كلوت بك: وكان الاتراك لما يشعرون به من الغطرسة والكبرياء ينظرون بعين الزراية الى المصريين ولا يكترثون بهم ويعتقدون فيهم العجز عن مجاراتهم، ولكن حرب الموره اثبتت لهم بالبرهان القاطع ان ذلك الشعب الحي المنكمش الذي ارهقه الضغط والعسف قدير على استرددا مجده القديم واهل لمنازعتهم فخر النجاح والفوز في القتال، ولقد اثبت لهم فتح الشام وانتصارات حمس وبيلان وقونيه، تفوقهم عليهم باعتبار كونهم افرادا، كما اثبتت كفايتهم باعتبارهم مجموعا اذا وجدوا القيادة الصالحة.

ولكن كلوت بك لاحظ ان المصريين لم يكن لهم نصيب في القيادة، ومع ان اطراهم بوصف كونهم جنودا فانه يقول انهم لم يضطلعوا بالمهام التي اقتضتها مراكز القيادة في الجي. وبرر عمل محمد علي في اقصائهم عن المراتب السامية في الجندية واسنادها الى الاتراك والمماليك، ويقول:

" انهم في المراتب العالية لا يقدرون كرامة مراكزهم الجديدة ووجاهتها، فهم يغايرون الـ عثمانيين والمماليك في الاهلية للقبض على زمام القيادة، وسرعان ما يتحولون الى عاداتهم القديمة بما اضطر محمد علي باشا وابنه ابراهيم على الرغم منها الى الكف عن ترقيتهم وترفيعهم الى المراتب السامية في الجندية، ومن هذا النقص، اسندت الى المماليك والاتراك في الجيش المناصب العليا."

هذا ما قاله كلوت بك ، ولم يذكر لنا تفصيل التجربة التي جربها محمد علي باشا في اسناد المراتب العالية في الجيش للمصريين والتي ظهر فيها عدم اهليتهم، واغلب الظن انه لم يجربها اصلا حتى يقام لهذا الراي وزن، ولو انه عود المصريين تقلد المناصب الرئيسية في الجيش لاضطلعوا بها ولظهرت فيها كفايتهم ومقدرتهم مع الزمن والممارسة، هذا فضلا عن ان راي كلوت بك في هذه المسالة ليس له كبير اعتبار لان المماليك والاتراك قد اندمجوا في الكتلة الوطنية كما سيجئ بيانه

راي المارشال مارمون

على ان المارشال مارمون يبدي في رحلته رايا يتعارض وراي الدكتور كلوت بك في هذا الصدد، فقد ذكر ان مناصب ضباط الجيش كانت في مدى سنوات عدة تسند الى الترك والمماليك لان محمد علي لم يشا بادئ الامر ان يستسلم للاهلين ويجعل نفسه تحت رحمتهم، ولكن لما رسخت سلطته واطمان الى اخلاص الجيش بدا يسند مناصب الضباط لى العرب فبرهنوا على ذكاء وافر ونشاط كبير، والذين ارتقوا من بينهم الى سلك الضباط صاروا احسن واكفا من الترك، والان – سنة 1834– لم يعد يعترض تقدمهم في المناصب العسكرية اي مانع وانفتح امامهم سبيل المراتب العالية.

وقد شهد المارشال سنة 1834 فيالق الجيش المصري على اختلاف وحداتها واطنب في صفاتها الحربية واعجب بكفاءتها وحسن نظامها، فقال عن المشاة:

"كان لواء المشاة المؤلف من الالاي التاسع والالاي العشرين في طريقه الى السويس للابحار منها الى الحجاز لنجدة الجيش المصري فيه، وعرضت بنفسي هذا اللواء، فقام امامي بمناورات دامت ثلاث ساعات في سهل القبة، فاعجبت به ايما اعجاب، واذا كان عساكره في مقتبل السن

وحديثي عهد بالانتظام في صفوفه فقد لاحظت مبلغ تاثير القائد الاعلي للجيش في تشكيله ونظامه، والحق ان العساكر الذين عرضتهم يجمعون الى الدقة والنظام، الدارية بالفنون العسكرية، وقد رايت في قائد اللواء وضباطه دلائل العلم والكفاءة، وشهدت ايضا الالاي السادس من الفرسان ولم يكن مضى على جنوده في الخدمة اكثر من عشر اشهر ومع ذلك رايتهم فيما عدا بعض ملاحظات طفيفة يستحقون كل الثناء."

وقال عن جنود المدفعية الذين يتمرنون في مدرسة المدفعية بطره: "قامت اورطة المدفعية الراكبة امامي بمناورات تدل على المهارة والنشاط والنظام والدقة وكانت مؤلفة من ستة لوكات رجالها على ما يرام من الجمال والتعليم ونظام الحركات العسكرية، كما ان مركبات المدافع متقنة منتظمة رغم كون الجياد التي تجرها صغيرة الجسم شان خيل القطر المصري، ورجال المدفعية مجهزون بما يلزمهم تجهيزا حسنا، اكفا في الرماية، يصيبون الهدف بدقة وسرعة، فالمدفعية المصرية جامعة لشروط الكفاية، تضارع مدفعيات الجيوش الاوربية، واميرلايها رجل كفء ممتلئ نشاطا وغيرة.

اما اورطة المدفعية المشاة فتتالف من 18 بلوكا، وقد قامت بمناوراتها فكانت مدافعها تصيب الهدف باحكام، اما مدافع الهاون فهي اقل ضبطا واحكاما، ولا يسع المشاهد هذه المدفعية الا الاعجاب بالقوة الت يحولت الفلاحين الى جنود على جانب عظيم من الكفاءة."

راي المسيو مريو

وقد احتفظ الجيش المصري بسمعته بعد انقضاء عصر محمد علي وبعد ان تناقص عدده، فقد احسن المسيو مريو الذي جاء مصر في عهد سعيد باشا الشهادة في حقه بقوله: "ان كفاءة الفلاح المصري في فهم النظام الحربي واتباعه وما اشتهر به من الثبات والشجاعة في مواجهة الاعداء كل هذه الميزات قد قامت عليها البينات لا في ميادين القتال بجزيرة العرب وسورية في عصر محمد علي فحسب، بل بحسن دفاع الجيش المصري عن سلستريا في حرب القرم الاخيرة."

الحصون المصرية في عصر محمد علي

عنى محمد علي عناية كبيرة باقامة القلاع والاستحكامات للدفاع عن ثغور البلاد وعاصمتها، فاصلح قلعة صلاح الدين بالقاهرة، وشحنها بالمدافع، وبنى على مقربة منها قلعة اخرى على ذروة المقطم تعرف بقلعة محمد علي وتشرف على الاولى، واصلح قلاعالاسكندرية وانشا غيرها، واستدعى من فرنسا لهذا الغرض مهندسا حربيا في فن الاستحكامات يسمى المسيو جليس وانعم عليه برتبة البكوية فصار يعرف بجليس بك، وعهد اليه اختبار سواحل مصر ووضع مشروع لحصونها واستحكاماتها، وجعله باشمهندس الاستحكامات.

ولكي تعرف مبلغ عناية محمد علي بالدفاع عن مصر نورد هنا احصاء ذكره اسماعيل باشا سرهنك عن كشف قديم من اوراق حسن باشا الاسكندراني مدير ترسانة الاسكندرية، يتضمن عدد قلاع الاسكندرية وابو قير والبرلس ورشيد ودمياط وعدد ما بها من المدافع سنة 1848 اي السنة التي تولى فيها ابراهيم باشا حكم مصر.

حصون الاسكندرية

اسماء الحصون مدافع اهوان جبخانة طابية قايتباي (أو قلعة برج المظفر–الفنار – الفنار الصغيرة – التراب (وتسمى الهلالية) – الاسبتالية الجديدة – الاستبالية القديمة – ظهر منزل الفرنسيس – المفحمة – مسلة فرعون – قبور اليهود القديمة – برج السلسلة – – باب شرقي – كوم الناضورة – الدخيلة – السلمية – المكس – القمرية – طابية ام قبيبة (كبيبة) – الملاحة القديمة – الملاحة الجديدة – صالح اغا – باب سدرة – كوم الدماس

حصون أبو قير

قلعة أبو قير – طابية كوم الشوشة – كوم العجوز – السد نمرة – السد نمرة – السد نمرة – السد نمرة

حصون رشيد

طابية التني – طابية العباسي – طابية الطوجنية – طابية المنزلاوي – طابية محل الشراكة – طابية برج رشيد – طابية قلعة البوغاز –الطابية الشرقية – الطابية الغربية

احصاء الجيش المصري في عهد محمد علي

كان الجيش المصري مؤلفا في اوائل حكم محمد علي من نحو 20000 من المقاتلة جميعهم من الجنود غير النظاميين (باشبوزق)، فلما ادخل النظام الحديث في الجيش واتبع طريقة التجنيد على ما مار بك بيانه تالف الجيش النظامي وصار يضارع في قوته وعدده وكفايته احدث الجيوش الاوروبية.

احصاء سنة 1833

جاء البارون بوالكونت الى مصر منتدبا من الحكومة الفرنسية في مهمة سياسية لدى محمد علي باشا، وله عن مهمته رسائل مطولة طبعت اخيرا في كتاب مستقل ، وقد استقصى احوال مصر في ذلك العصر، فذكر عن الجيش انه تلقى بيانا من محمد علي نفسه عن عدده في تلك السنة 1833، ومن هذا البيان الرسمي يتضح انه يتالف من 194932 من المقاتلة، بما فيهم 25143 من البحارة بحسب الاحصاء الاتي:

22آليا من المشاة وعددهم 70337جندي الايات من الطوبجية 6357 جندي 13 الايا من الفرسان النظاميين 7962 جندي فرقة الهندسة 3942 جندي الفرسان غير النظاميين 3435 جندي البدو 5370 جندي طلبة المدارس الحربية 3488 جندي الرديف ورجال الشرطة 67988 جندي مجموعة جنود البر سنة 1833 168889 جندي

احصاء سنة 1839

وقد بلغ الجيش المصري اوجه من جهة العدد سنة **1839** وقد اعتمدنا في احصاء هذه السنة على ما اورده الدكتور كلوت بك في كتابه لمحة عامة الى مصر ، وهو وان اختلف عن احصاء المسيو مانجان عن سنة **1837** وزاد عنه، الا اننا نعتقد ان كلوت بك لمكانته في الحكومة قد توفر له من وسائل التحقيق والتمحيص اكثر مما توافر للمسيو مانجان.

التجارة فى عهد محمد على باشا

محمد علي باشا وجهوده في ازدهار التجارة (السياسة الاحتكارية)

عندما تولى محمد علي حكم مصر عام 1805، أدرك على الفور ما تمتلكه مصر من ثروات عديدة، من الممكن الاستفادة منها إلى أقصى مدى نظرا لما كان يملكه من خبرة تجارية – باعتباره تاجر دخان – ولكى يحتفظ بأكبر قدر من هذه الثروات، أصدر عام 1812 نظاما جديداً هو نظام الاحتكار الذي طَبقه في البداية على التجارة الداخلية، ثم امتدّ بعد ذلك إلى التجارة الخارجية، وقد جنى محمد علي من وراء هذا النظام أرباحا طائلة لم يسبق أن حصل عليها أى حاكم على مصر طوال القرن الثامن عشر.

ربما نجح هذا النظام في بداية الأمر؛ لأن الظروف المحيطة بمصر خارجيا، وما شهدته البلاد داخليا، ساعدت على إنجاحه، فبالنسبة للوضع الخارجي ومع بدايات حكم محمد علي حدث قحط شديد في بعض دول البحر المتوسط وإنجلترا، والدولة العثمانية، نتيجة قلة الأمطار بها، مما حدا بهذه الدول إلى أن تقوم بطلب القمح المصري وبكميات كبيرة، الأمر الذي جعل محمد علي يقتنص الفرصة لإنعاش خزينة الدولة،

وجعل مصر تظهر بصورة الإقليم العثماني الأكثر أهمية لكثير من الدول، هذا عن الوضع الخارجي أما بالنسبة للوضع الداخ لي، فقد قام محمد علي بمحاربة القوى المناوئة له والتي من الممكن أن تكون مصدر إزعاج وقلق له، فقام بالقضاء على المماليك المتمردين، والذين كانوا يسعون إلى إعادة سيطرتهم على مقاليد الحكم من جديد في مذبحة القلعة الشهيرة 1811، كما استطاع السيطرة على فئة العلماء والأشراف الذين عاونوه على الوصول إلى الحكم، وقد كانت هاتين الفئتين في يديها مقاليد أمور الشعب المصري.

إذن وبعد تهيئة الأوضاع الداخلية لإرادته، وبعد ظهور الوضع الخارجي المفاجئ، قام على الفور بتطبيق هذا النظام بدون أى تردد، إلى أن حدث ما لم يتوقعه محمد علي عندما تجمعت كل القوى الكبرى عليه، وقامت بالقضاء على قوته المتمثلة في هذه السياسة الاحتكارية لكل موارد الدولة، عندما قامت إنجلترا بعقد معاهدة بلطة ليمان في أغسطس 1838، والتي قضت بإلغاء نظام الاحتكار الذي كان يعتبر بمثابة حجر الزاوية في قوة محمد علي الاقتصادية.

كان للسياسة الاحتكارية أثرها على تجارة الصادر، فقد اتبعت الحكومة عدة طرق لبيع منتجاتها من خلال هذا النظام أولها

البيع للتجار الأجانب في مصر

على الرغم من اهتمام محمد علي الشديد بالتجار الأجانب ومحاولاته الدائمة لكسب ودهم وثقتهم، إلا أن البعض قد اتهمه بأنه لا يبيع سوى جزء من محصوله وبأسعار مغالى فيها تُكبدهم خسائر فادحة، فقد كان لكل تاجر من هؤلاء حساب مفتوح بديوان التجارة، كما كان يبيع لبعضهم أصنافًا بأكملها من ذلك نرى أنه باع محصول ملح البارود كله لسنة 1256هـ إلى الخواجة جيجينه Gegina على أن يسدد الثمن بتحاويل، وباع له محصولى الفول والشعير لعام 1261هـ على أن يسدد الثمن نقداَ.

البيع بالمزايدة

كان محمد علي يشتري المحصول من الزارع ثم يبيعه بثمن متفق عليه لنخبة مختارة من التجار الأوروبيين، وقد أثبت هذا النظام فائدة كبيرة لمحمد علي مثلما الحال لهؤلاء التجار، فنراه يأمر بأن يوضع صنفى الحمص والنيلة في المزاد لبيعهما في المزاد لبيعهما لأنه في ضيق مالي شديد]، وكان الأسلوب المتبع في هذه المزادات، هو أن تدفع هذه النخبة المختارة من التجار مبلغًا ماليا مقدما إلى الحكومة، نظير حصة من المحصول متفق عليها من محصول العام التالي

البيع بالنسيئة :

في أوقات الشدة عند الاحتياج إلى المال، كما حدث في سنوات 1827، 1833، 1839 حيث كانت الحكومة تأخذ من التجار الأجانب مبالغ مالية مقدما، مقابل إعطائهم الحاصلات عند حصاده، فقد عقد محمد علي اتفاقًا مع الخواجة لوبين والخواجة ثيربرن، يقضي بأن يورد الأخير إلى خزينة الإسكندرية مبلغ خمسمائة ألف ريال فرنسي في قسطين مقابل محاصيل سنة 1243هـ/ 1827 من القطن، والكتان، والنيلة، والغلال، والأرز، بشرط أن يتعهد الخواجة لوبين بجلب مليون ريال فرنسي ونصف مليون آخر عند اللزوم

البيع في الخارج لحساب الحكومة

باعت الحكومة محصول القطن في أول الأمر لحسابها في الخارج، وبخاصة في إنجلترا عن طريق صمويل بريجز Samuel Briggs ، وبحلول عام 1828 حاولت الحكومة إنشاء وكالات تجارية لها في الخارج لبيع الحاصلات للمستهلكين الأجانب مباشرةً، ورغم فشل المحاولة؛ لعدم كفاءة الوكلاء، فقد كان لهم دورا في شراء لوازم الجيش للباشا، من مواسير البنادق وكعوبها، بعد أن يبين لهم عناوين المصانع التي تبيعها وأسعارها، وكان على هؤلاء التجار أن يقدموا لمحمد علي كشوفات شهرية بالمحاصيل التي تورد إليهم، وإلا هددهم الباشا بإيقاف التصدير إليهم كما حدث مع الخواجة لوبين بليفورنه، والخواجة بريجز في إنجلترا

رأى محمد علي أن الأرباح التي كان ينتظرها من وكلائه في الخارج، أقل مما كان متوقع، والمخاطر كبيرة، لذا قرر أن يبيع منتجاته إلى وكلاء للبيوت الأجنبية يقيمون في مصر، فقد أعطى للخواجة تورنو Tornow التاجر المقيم بالإسكندرية وشريك ووكيل بريجز المقيم في إنجلترا، ثلاثين ألف بالة من القطن، على أن يشحن ذلك المقدار في سفن مؤمن عليها وتُرسل إلى إنجلترا بموجب عقد يقضي بتسديدهم ثلثى ثمن القطن عند وصوله إليهم، فإن داوموا على الدفع حسب الشروط المأخوذة عليهم فإنه سيرسل 30 ألف بالة أخرى، أما إذا تأخروا عن دفع الأقساط في مواعيدها وأبدوا أعذارا واهية فإنه لا يجب شحن القطن إليهم

ولقد كان لقناصل الدول الأوروبية رأى في هذه السياسة التجارية الاحتكارية، فقد أورد دروفتي Drovetti قنصل بريطانيا العام في القاهرة عام 1818 في هذا الشأن ما يلي: "إن قسطًا كبيرا من عدم الثقة الحالي يجب أن يعزى إلى سياسة الباشا السيئة الخاصة بمحاولة احتكار كل إنتاج البلاد، وأن ينصب من نفسه بائعا لكل البضائع الأجنبية المستوردة إليها، وقد نتج عن ذلك أن توقفت كل التجارة التي كان يقوم بها التجار الوطنيون، ولم تكد تبقى أى وسيلة يستطيعون بها أن يتوصلوا إلى حياة شريفة."

يتضح مما سبق، الوضع الذي كان عليه التجار الأجانب في ظل هذا النظام، خاصة وأنهم لم يتمتعوا بقدر الحماية الكافي الذي تكفلهم إياه الامتيازات الأجنبية، كما أن التذمر الدائم من معاملة محمد علي لهم، فَجر قنبلة الضغط الأوروبي الرهيب على كل أحلامه وطموحاته فيما بعد.

الميزان التجاري وأهم السلع المستوردة والمصدرة :

بعد أن كانت الحبوب من القمح والذرة والفول والأرز ، هى أهم الصادرات حتى عام **1831**، جاء انتشار زراعة القطن والتوسع فيه لكى يأخذ الصدارة من المحاصيل الأخرى، خاصةً الحبوب، ومن خلال دراسة محصولى الغلال والقطن في مصر، نجد أنه عندما تزيد مساحة القطن المزروعة، تقل المساحة المنزرعة من الغلال، والعكس صحيح، ففي الفترة من **1824** – **1828** نقصت المساحة المزروعة قطناً، وكانت المصانع تستهلك ربع المحصول، فانخفضت صادرات القطن إلى **59.255** قنطار في هذه السنة، وزادت بعد ذلك المساحة المزروعة بين اعوام **1830** – **1835**وتخلل ذلك نقص في مساحة الحبوب المزروعة وهكذا دواليك...

قام محمد علي بطرح القطن المصري على السوق العالمي لدى بيتين تجاريين هما بيت بريجز البريطاني وبيت فيوليه جرابان Violierand & Graban السويسري، وذلك عندما احتاج محمد علي للنقود إلى النقود لمواجهة نفقات الحرب ضد المتمردين اليونانيين، فطلب من هذين البيتين أن يقدما له نقوداَ على حساب محصول القطن، فتلقّى بريجز وشركاه 35.000 بالة لبيعها في إنجلترا، وجرابان 15.000 بالة لبيعها في فرنسا وإيطاليا.

ذهب بريجز وأقنع رجال الصناعة الإنجليز بقيمة قطن جوميل، وحصل من الحكومة البريطانية على شروط طيبة فيما يتعلق بنفقات الجمارك ،وكان سعر بيع القطن يتعرض لتقلبات شديدة، فالمحصول الأول بيع بسعر 16 دولارا للقنطار، ثم أثرت الأزمة المالية الدولية التي نشبتفي عام 1837 على التجارة المصرية، الأمر الذي أدّى إلى انخفاض سعر القطن إلى حوالي 10 دولارات للقنطار بعد أن كان سعره قبل ذلك بسنوات قليلة يتراوح بين 25 – 30 دولارا، وكان أول قطن مصري قد عُرض في سوق القطن بليفربول في شهر أبريل من عام 1823، وفي 16 مايو بيع هذا القطن بالمزاد العلني بسعر 11 بنسا للرطل الواحد، بينما بيع القطن الأبلاند الأمريكي بسعر يتراوح بين 6.25 – 8.25 للرطل، والقطن البرازيلي بسعر 10 – 11.75 للرطل، وقطن سورات الهندي بسعر 5.50 – 6.75 بنسا للرطل، وقد ذكرت شركة إيوارت ماير Ewart Mayer في تقريرها السنوي الصادر في 31 ديسمبر 1823، أن 3000 بالة قطن وردت من مصر في هذا العام،

وينتظر ورود كميات منتظمة من هذا القطن، ووصفت هذا القطن بأنه طويل وناعم التيلة، ولكنه أغبر ولم يعنَ بنظافته، كما ذكرت شركة ماريوت وروجرز **Marriott & Rogers** في تقريرها السنوي عام **1823** ، أن القطن المصري قد اُستعمل بدلاً من القطن البرازيلي، وأن التجربة نجحت نجاحاَ كبيرا، وما من شك أنه لو اُعتنى بجنى ذلك القطن واوادت معرفة أصحاب مصانعنا بطبيعته، فمن المرجح أن يبح بديلاً نافعا، وذا قيمة أكبر من الرتبة الواطئة من قطن سي آيلاند الأمريكي وهذا بيان بالصادر من القطن المصري إلى إنجلترا من عام **1822** إلى **1836**:

السنة	الكمية المصدرة بالقنطار	مجموع ما تستورده إنجلترا بالريال [59]
1822	135	2092.5
1823	4.529	70.1995
1824	48.160	818.72
1825	87.808	1.141.504
1826	37.072	481.936
1827	21.165	275.145
1828	31.746	412.698
1829	27.962	335.554
1830	11.821	141.852
1831	36.074	378.777
1832	38.089	571.335
1833	2.569	71.932

1834	2.038	62.6685
1835	31.709	800.652.25
1836	17.864	330.484

ونلاحظ من الجدول السابق أنه في عام 1828، كانت كمية القطن المصدرة إلى إنجلترا هى الأعلى بالنسبة للكمية الكلية المصدرة للخارج(53.57%)، لماذا؟، ربما أراد محمد علي تعويض ما يدره تصدير الحبوب إلى الخارج – بسبب نقص المساحة المزروعة من الحبوب في هذه السنة – وزيادة المساحة المزروعة قطناً، وبما أن إنجلترا استوردت القطن المصري – لاحتياج مصانعها في لانكشير له – فقد تصدر القطن دخل خزينة الباشا هذا العام، لكن السؤال الآن لماذا انخفضت نسبة الكمية المصدرة إلى إنجلترا في الأعوام التي تلت 1828؟ هل بسبب ارتفاع نسبة الرسوم الجمركية التي كانت مفروضة؟ أم أن إنجلترا قد آثرت جلب ما يلزمها من القطن، من جزيرة سيلان – كانت مستعمرة إنجليزية – التي اشتهرت بما تزرعه من أجود أنواع القطن، ولن تواجه بريطانيا عناء كبيرا في إحضار ما يلزمها لمصانعها؟ أعتقد أن الرأيين يتوافقان مع مجريات الأحداث بعد عام 1828 ، حين حاول محمد علي جعل مصر ولاية مستقلة عن الدولة العثمانية، فأصدر الأوامر التي يراها تَصب في مصلحته الشخصية، وتُدر على الدولة الربح الوفير، غير عابئ بما كانت تُعطيه الدولة العثمانية من امتيازات للدول الأجنبية في داخل أقاليمها، ولا الفرمانات التي حاولت الآستانة إرداعه بها عما كان يجول في خاطره من أحلام.

كما أورد روبرت ثيربرن في تقريره، أن صادرات الإسكندرية في 1831 إلى إنجلترا من القطن الشعر كانت تُقدَّر بحوالي 4.931.853 جنيه، من ذلك نرى أن القطن يَعد المحصول النقدي الأول، وهناك محاصيل أخرى اهتمت إنجلترا باستيرادها من مصر نذكر منها الأفيون الذي احتل المركز الثاني من حيث الأهمية، وتؤكد المصادر أن محمد علي هو أول من قام بإدخاله إلى مصروقام بجلب كان أول صنف يحتكره محمد علي عام 1812، فربح منه ربحا وفيرا.

وذكر بورنج في تقريره قيمة صادرات مصر إلى إنجلترا في أعوام مختلفة على النحو التالي: في عام 1823 بلغت قيمة الصادرات 186.439 دولارا، وفي عام 1824 بلغت قيمة هذه الصادرات 1.945.000 دولارا، وفي عام 1826 بلغت قيمة الصادرات 623.700 دولارا، أما عن ميناء دمياط فقُدر حجم الصادرات في عام 1823 ثلاثون ألف جنيه، وأوضح تقرير ثيربرن عدد السفن الإنجليزية التي غادرت ميناء الإسكندرية في أعوام 1826، 1836، 1837، موزعة على النحو التالي: في عام 1826 بلغ عدد السفن الإنجليزية التي غادرت الميناء قاصدة بريطانيا العظمى – على حسب قول ثيربرن – 25 سفينة فقط 19 منها قصدت ميناء ليفربولLiverpool ، و 6 قصدت ميناء لندن (London)

في حين بلغ عدد السفن التي غادرت الميناء 678 سفينة، وفي عام 1836 بلغ عدد السفن التي غادرت الميناء متجهةً إلى إنجلترا 20 سفينة فقط (17 سفينة اتجهت إلى ميناء ليفربول، و3 إلى ميناء لندن)، في حين بلغ إجمالي عدد السفن التي غادرت الميناء 441 سفينة، وفي عام 1837 بلغ عدد السفن المغادرة إلى إنجلترا 331 سفينة (32 سفينة إلى ليفربول وواحدة فقط إلى لندن)، وبلغ عدد السفن المغادرة الميناء 379 سفينة.

وقد ذكر وليم هودجسون William Hodgson في تقريره، أن مقدار الصادرات المصرية على وجه التقريب خلال عام 1832 قد بلغت نحو 8.955.648 دولارا، كان نصيب إنجلترا منها 1.380.078 دولار، أى بنسبة تُقدر بـ 15.4% من مجموع الصادرات الكلي.

أما عن الواردات، ففي بداية القرن الثامن عشر كانت الواردات المصرية الرئيسية من القماش، والآلات المعدنية، والبضائع الزجاجية، واستمرت هذه البضائع طوال القرن كسلع أساسية تستوردها الدولة من الخارج، لكن وبمرور الوقت ومنذ تولية محمد علي مقاليد الحكم في مصر، قام بعمل نهضة شاملة في الصناعة لكى يقلل من المواد التي تستوردها الدولة من الخارج، وعلى الرغم من ذلك فقد كان محمد علي نفسه أكبر مستورد في البلاد، بسبب اضطراره الدائم لإمداد مصانعه بالمواد الأساسية، التي من خلالها سيقوم بتغطية احتياجات جيشه، وتحقيق أغراضه التوسعية.

وليقوم باستيراد ما يحتاج إليه قام باستخدام شحنة ضخمة من المحاصيل ليدفع بثمنها مقابلاً لشراء سفن أو أسلحة، فتخبرنا العديد من الوثائق بمبادلة محمد علي المحاصيل مقابل الأسلحة ففي عام 1823، قام بصرف 200 قنطار قطن في مقابل ثمن 200 مدفع، تم استيرادها من إنجلترا بواسطة وكيله صادق أفندي ،وفي عام 1834، استورد محمد علي من إنجلترا مدفعين، وتم شحنهما على سفينة حربية في الإسكندرية ،وفي نفس العام، أمر محمد علي بوغوص بك باستيراد 2000 بندقية من إنجلترا، بخلاف ألفين سابقين تم التوصية على استيرادهم

المصادر والمراجع

- ديوان التجارة والمبيعات :**محفظة 1، من الجناب العالي إلى الخواجة بوغوص، 11 رجب 1239هـ / 1823.**

- **صلاح أحمد هريدي :**دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر، **جـ2، عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة، 2000**

- **عبد الرحمن الرافعي :**عصر محمد علي، **مطبعة النهضة،القاهرة ،1930**

- **عبد الرحمن الجبرتي :**عجائب الآثار في التراجم والأخبار، **مطبعة لجنة البيان العربي، ط1/ج4، 1965**

- **عفاف لطفي السيد مارسو :**مصر في عهد محمد علي، **ترجمة: عبد السميع عمر زين الدين ، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة،2004**

- **عمر عبد العزيز عمر :**دراسات في تاريخ مصر الحديث والمعاصر(1517 – 1922)، **دار المعرفة الجامعية، 1999**

- **أحمد أحمد الحتة :**تاريخ الزراعة المصرية في عهد محمد علي الكبير، **دار المعارف، القاهرة، 1950**
- **أحمد أحمد الحتة :** تاريخ مصر الاقتصادي في القرن التاسع عشر، **ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1955**
- **أحمد أحمد الحتة :**دراسات تاريخية اقتصادية لعصر محمد علي، **مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، د. ت**

الفهرس

مقدمة 1
بدايات محمد على باشا 3
محمد على فى القاهره 5
محمد على باشا والى على مصر 10
محاربة الوهابيين 19
حروب السودان و المورة 25
الزحف إلى الشام 29
إصلاحات محمد على الاقتصادية 32
النهضة التعليمية فى عهد محمد على 51
النهضة الصناعية المصرية فى عهد محمد على 62
تطوير الجيش فى عهد محمد على 86
التجنيد فى عهد محمد على 99
المدارس الحربية فى عهد محمد على 104
المصانع الحربية في عصر محمد علي 112
ديوان الجهادية 124
الحصون المصرية في عصر محمد علي 135
التجارة فى عهد محمد على باشا 139
المصادر والمراجع 151
الفهرس 153